
روايات مصرية للجيب
زهور
١٤
شمس الليل
Looloo
www.dvd4arab.com
د. نبيل فاروق
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

شمس الليل

يا نداء ضاع فى قلب حبيب
يا هتافاً غاب فى جسد عليل
كيف جاء الحب يبكى كالغريب؟
كيف أن العشق مقهور ذليل ؟
كيف صار الكون جرحاً لا يطيب؟
وفروع الزهر صخراً لا يميل ؟
فاترك الدمع المراق كاللهيب
وانفض الحزن المضل بلا سبيل
ولتكن عيناى شمساً لا تغيب
فى ظلام ليلك الطويل
(نبيل)

١ ـ البيت الجديد ..

السبت : أول مارس .

صديقتى العزيزة / فريدة ..

أخيراً انتقلنا إلى البيت الجديد فى القاهرة ..

أخيراً حصلت أسرتى الصغيرة على الاستقرار ..

أنت تعلمين يا صديقتى العزيزة ، كيف قضينا الأعوام الخمسة الماضية فى ارتباك ، منذ أن نُقلَ والدى إلى وظيفة مرموقة ، فى المقر الرئيسى للبنك الذى يعمل به ، فى وسط القاهرة ، واضطرته ترقيته إلى ترك مدينة (بور سعيد) ، حيث نقيم ، أقصد حيث كنا نقيم ، منذ زمن طويل ، وانتقل إلى القاهرة ..

وأنت تعلمين يا (فريدة) أن العثور على شقة جديدة فى القاهرة ، يعدّ من المستحيلات ، التى تضاف إلى الغول ، والعنقاء ، والخل الوفىّ فى عصرنا هذا ..
وبالنسبة لوالدى كانت المشكلة مضاعفة ، فقد كان مركزه الجديد ، والطبقة الاجتماعية التى نقلته إليها

وظيفته الجديدة ، يفرضان عليه العثور ليس على مجرّد شقة فى القاهرة ، وإنما شقة أنيقة فى حىّ لائق ..

وكان من الصعب أنْ يرفض والدى هذه الترقية ، التى ستضاعف دخلنا ثلاث مرات على الأقل ..

وكان من العسير فى الوقت ذاته أن يصحبنا معه إلى القاهرة ، قبل أن يدبر لنا مكاناً مناسباً للسكن ..

وأنت تذكرين ، يا صديقتى العزيزة ، أن والدى قد جمع أسرتنا الصغيرة ، المكوّنة منه ، ومن أمى ، وأنا ، وشقيقى الصغير (وليد) ، كعادته كلما واجهتنا مشكلة ما ، وعرض علينا الأمر بتفاصيله ..

شرح لنا مزايا الترقية ، والوظيفة الجديدة ، ومتاعب الانتقال إلى مدينة أخرى ، والتخلى عن العلاقات الاجتماعية المترابطة ، والصداقات القوية ، التى تكوَّنت طوال معيشتنا فى (بور سعيد) ، وطلب منا أن نشاركه فى اتخاذ القرار .

وكان ما يطلبه منّا عسيراً ، شاقّاً ، فأحلى الخيارين مُرّ ..

لا يمكننا أن نطلب منه التخلى عن طموحه ، وعن رغبته فى التقدم والرقىّ ، كما لا يمكننا فى الوقت ذاته التخلى عن صداقاتنا القديمة بسهولة ..

كان اتخاذ القرار أمراً عسيراً ، وأعتقد أن هذا هو السبب ، الذى جعل والدنا يشاركنا فيه ..

وأصدقك القول إنك كنت أول ما فكرت فيه يا صديقتى العزيزة ..

فأنت هذا الخلّ الوفىّ ، الذى يندر وجوده فى أى زمان ومكان ..

ولكن أحدنا لم يكن أنانيًّا .. حتى (وليد) ، الذى لم يتجاوز العاشرة من عمره ..

واتفقنا جميعاً على أن يقبل والدى وظيفته الجديدة ، وينتقل وحده إلى القاهرة ، حتى يمكنه تدبير منزل جديد ، يمكننا العيش فيه معاً ..

وانتقل والدى إلى وظيفته الجديدة ، ومنحه البنك حجرة فى فندق أنيق ، حتى يتم تدبير مكان سكنانا ..

وبدأ عهد من عدم الاستقرار فى أسرتنا الصغيرة .

صحيح أن والدى كان يأتى إلينا ثلاثة أيام فى الأسبوع ، أو على وجه الدقة يومين ونصف اليوم ، وكان يحاول إسعادنا بقدر استطاعته فى هذه الإجازة ، إلا أننا كنا نفتقد وجوده فى الأيام الباقية ، بعد أن اعتدنا لسنوات طوال على تناول طعام الإفطار معاً كل صباح ، قبل أن يذهب هو إلى عمله ، ونذهب نحن لدراستنا ..

والغريب أننا لم نشعر أبداً بالدخل الإضافىّ ، الذى منحتنا إياه وظيفة والدى الجديدة ، فقد كانت معيشته فى مدينة أخرى تستهلك الكثير من هذا الدخل الإضافىّ ، ولكننا لم نشكُ ، ولم نعترض ..

ولقد كانت أمى رائعة يا (فريدة) ، طوال الأعوام الخمسة التى قضاها والدى وحده فى القاهرة .

كانت تبذل مجهوداً مضاعفاً للقيام بدورَىِ الأم والأب معاً ، طوال فترة غياب أبى ، وعلى الرغم من ذلك كانت تستقبله بابتسامة عذبة رقيقة ، وتحرص على توفير أقصى درجات الراحة له ، حينما يأتى فى إجازته .

وأنت تعرفين أمى يا (فريدة) .. إنها إنسانة رائعة ، يفيض قلبها بحب وحنان يكفيان لغمر الأرض كلها ، وأنت تعلمين كم تغدق علينا من حبها وحنانها ، حتى أن والدى يخشى أحياناً أن تفسدنا - أنا وشقيقى - بتدليلها الزائد ، والواقع أننى أتساءل حقًّا : كيف لم تفسدنا معاملتها هذه ؟ ، ولكننى أعتقد أن السبب يعود إلى ذلك الحزم ، الذى تلجأ إليه دائماً ، إذا ما لمست منا تقاعساً ، أو تقصيراً ، أو إهمالاً يستوجب العقاب ، وتدهشنى قدرتها على إخفاء حنانها ، وإبعاد فيض رقتها ، إذا ما تكاسلنا يوماً عن أداء واجبنا ..

باختصار .. إنها إنسانة رائعة عظيمة ..

لست أحتاج لشرح مآثرها لك يا (فريدة) ، فأنت تعرفينها مثلما أعرفها أنا ، بحكم تلك الصداقة التى ربطت بيننا منذ طفولتنا ، والتى جعلت والدتى تعدّك ابنتها ، وتغدق عليك من فيض حبها وحنانها ، حتى أنها بكت طويلا ، وهى تقبّلك أمس ، قبل أن نغادر (بور سعيد) ، وننتقل إلى هنا ، فى (القاهرة) ..

وكنا نحتمل جميعاً حالة عدم الاستقرار هذه ، ونحن نتصوّر أنه لن ينقضىَ عام واحـد ، حتى يوفر البنك سكناً مناسباً لأبى ، فى أرقى أحياء القاهرة ، ولكن طموح والدى الشديد جعل هـذا العـام يطـول لخمسة أعوام كاملة ..

قبل أن ينتهى البنك من إعداد السكن المناسب بأيام معدودة ، حانت لوالدى فرصة السفر إلى إحدى دول الخليج ، والحصول على منصب مدير بنك هناك ، بمرتب ضخم ، يفوق مرتب منصبه فى القاهرة عشر مرّات ..

وسافر والدى إلى هناك ..

سافر وأصبحنا نفتقده طوال الأسبوع ، ونتلهف لخطاباته ، وللإجازات التى نقضيهـا معه هناك ، على شاطئ الخليج ..

وكان والدى ، والحـق يقـال ، شـديد الـكرم والسخاء ، طوال هذه الفترة ، محاولاً أن يعوّضنا غيابه بإغـداق الأموال علينـا ، وكان يلحّ على أمى دائماً أن

نلحق به نحن كلنا إلى هناك ، وكان صادقاً فى إلحاحه ، ولكنها كانت ترفض فى رقة ، متعللة بدراستنا ــ أنا و(وليد) ــ ومتحملة تباعدنا ، وعدم استقرار الأسرة من أجلنا ..

وأخيراً عاد والدى من دولة الخليج تلك ..

لم يعد إلى (بور سعيد) ، ولكن إلى القاهرة مرة ثانية ..

عاد ليتسلم منصب مدير البنك ، الذى كان يرأسه فى الخليج ، بعد أن أصبح واحداً من أكبر البنوك الاستثمارية فى مصر كلها ، وأصبح والدى واحداً من أكبر خبراء البنوك والاقتصاد فى الشرق الأوسط كله ..

وهذه المرة أمكنه أن يشترى شقة فاخرة ، فى أرقى أحياء القاهرة ..

لست أدرى لماذا أكتب لك كل هذا يا (فريدة) ، على الرغم من معايشتك لكل هذه الأحداث ، بحكم ارتباطنا ، وتلازمنا طوال الوقت ؟ .. ولكن يبدو أننا أصبحنا كياناً واحداً ، أو أننا كنا كذلك دائماً ، فمن

السهل على كل منّا أن تشرح للأخرى أدق مشاعرها وانفعالاتها ، دون تردّد ، أو خجل ، أو صعوبة ، بل إن الواحدة منا تجد الراحة ، كل الراحة ، فى إفراغ مكنونات صدرها للأخرى ، وأنا أشعر أحياناً أن صداقتنا نادرة ، فذة ..

المهم يا صديقتى العزيزة هو أنه أخيراً صار لنا منزل فى القاهرة ، وأصبحت أسرتنا مستقرة ..

لن يمكنك تصوّر فرحتنا وسعادتنا ، حينما وطئَتْ أقدامنا أرض شقتنا الجديدة ..

لقد انهمرت الدموع من عينى أمى .. دموع السعادة والارتياح ، بعد أن اطمأن قلبها أخيراً إلى التئام شمل الأسرة ..

(وليد) أخذ يقفز من حجرة إلى أخرى فى فرح ، وهو يصفق بكفيه فى مرح طفولى ، ثم أسرع إلى حجرته ، يرتب ثيابه ، ويصفف كتبه ، ومازالت الموسيقى العذبة التى يبثها جهاز التسجيل الجديد الخاص به تنساب من حجرته ، إلى كل أرجاء المنزل .

أما أنا فقد تنازعتنى مشاعر شتى يا (فريدة) ..

كنت أشعر حقّاً بالسعادة ، لانتقالنا إلى هذا المنزل الجديد ، ولكن جانباً من نفسى كان يشعر بالحزن لفراقك ، وفراق مجتمعنا القديم فى (بورسعيد).

انظرى حتى إلى اللفظ الذى استخدمته .. لفظ (مجتمعنا القديم) .. لقد استخدمته دون وعى ، على الرغم من أننا لم نفارق هذا المجتمع إلا منذ يوم واحد لا غير ..

هذه هى طبيعة الانتقال إلى مجتمع جديد ..

إنه يمنحك شعوراً بالانسلاخ عن كل ما يسبقه ، خاصةً إذا ما كنت تعلمين أنك ستقضين ما بقى لك من العمر فى هذا المجتمع الجديد ..

قبل أن أدخل فى حديث فلسفى ، حول العلاقات الاجتماعية ، سأخبرك أولا عن سبب كتابتى هذا الخطاب العاجل لك ، قبل أن أنتهى حتى من ترتيب حجرتى ..

أعود فأقول إننى دخلت إلى حجرتى ، فى المنزل الجديد ، وأنا نَهْب لمشاعر شتى متناقضة ، من الفرح

والحزن ، وجلست على طرف فراشي الجديد ، واجمة ، أتطلع إلى أثاث الحجرة الجديدة ، وأسترجع بذاكرتى أحاديثنا المتعدّدة ، فى حجرتى القديمة فى (بورسعيد) .

وبينما أنا غارقة فى خِضَمّ الذكريات هذا ، انسابت إلى أذنىّ نغمات موسيقية ناعمة شجية ، انتزعت من أعماق كل المشاعر الحزينة ، وجعلتنى أشعر وكأننى أسبح فى سماء الجنة ، وأتمايل مع رياح السعادة ..

كانت الأنغام عذبةً رقيقةً ، بعثت الخدر فى أعماق ، والنشوة فى عروق ، وتصوّرت أن مبعثها واحد من تسجيلات (وليد) الجديدة ، وهممت بالانتقال إلى حجرته ، والاسترخاء إلى جوار تلك الموسيقى الحالمة ، لولا أن تنبهت فى اللحظة الأخيرة إلى أن الأنغام الساحرة لا تأتى من حجرة (وليد) ، وإنما من ناحية نافذة حجرتى .. من خارج المنزل كله ..

وقادتنى قوة سحرية إلى النافذة ، وفتحتها فى شرود ، وعقلى سابح مع الموسيقى الرقيقة ..

ورأيته ..

رأيت صاحب الأصابع الذهبية ، التى تعزف هذه الألحان العذبة ..

رأيت صانع هذا النغم الساحر ..

رأيت أجمل شاب وقعت عليه عيناى فى حياتى كلها يا (فريدة) ..

كانت ملامحه شديدة الرقة كموسيقاه ، حالمة ، جميلة ، ممتلئة بالرجولة والحيوية ..

وجهه مستطيل متناسق ، يستدق فى أسفله ، حيث ذقنه المدببة الرقيقة ، وجبهته عريضة ، تشفّ عن الذكاء ، يتوّجها شعر ناعم كالحرير ، حالك السواد ، مصفف فى عناية وأناقة ، وحاجباه كثيفان بعض الشىء ، وأنفه مستقيم ، وفمه رقيق ذو شفتين صغيرتين ، مزمومتين فى تركيز ..

ولكننى لم أر عينيه للوهلة الأولى ، فقد كان يرسل بصره إلى أصابع ذلك (البيانو) الكهربائى الحديث ،

الذى تنتقل أصابع كفيه فوقه فى نعومة ، وإتقان ، مرسلة ذلك النغم الآسر ..

وقفت طويلا كالمسحورة ، هائمة مع الموسيقى العذبة ، سابحة مع وجه صاحبها ، حتى انتهى من عزفه ..

لا يمكننى يا (فريدة) أن أصف لك ذلك الصمت الذى أعقب توقّفه ..

لقد بدا وكأن الكون كله قد لجأ إلى السكون ، احتراماً لروعة موسيقاه ..

الصوت الوحيد الذى كنت أسمعه آنذاك هو صوت دقات قلبى ، التى ارتفعت ، وتسارعت ، وهو يرفع عينيه إلىَّ ..

انتابنى خجل شديد ، وأردت أن أبتعد عن النافذة ، حتى لا ينتبه إلى تلك النظرة الحالمة ، التى أتطلّع بها إليه ، ولكننى لم أكد أرى عينيه حتى تسمّرت فى مكانى ..

كانت عيناه تفوقان جمال وجهه آلاف المرات يا (فريدة) ..

كانتا كبحر متلاطم الأمواج ، واسعتين ، حالمتين ، فى لون الذهب المحروق ..

وتلاقت نظراتنا لحظة ..

لحظة ارتجفت فيها من قمة رأسى حتى أخمص قدمىَّ ..

وانتزعت نفسى من مشاعرى فى قوة ، وأغلقت النافذة فى وجهه ..

وأسرعت أكتب إليك هذا الخطاب ، بعد أن هدأت ضربات قلبى ..

معذرة يا صديقتى العزيزة ، لقد عاد قلبى يختلج بين ضلوعى فى قوة ، وأنا أستعيد ذكرى هذه اللحظات ، وبدأ القلم يرتجف بين أصابعى ، حتى أصبح من العسير علىَّ أن أواصل الكتابة ، ولابد لى أن أكتفى بهذا ..

وإلى خطاب آخر ..

صديقتك الوفية

(صفاء)

* * *

٢ ـ العاشقة ..

الأحد : الثانى من مارس .

صديقتى العزيزة (فريدة) ..

أنا عاشقة ..

أعلم أن هـذه العبارة ستذهلك ، وأنك ستقرئينها أكثر من مرة ، وربما فركت عينيك بعد كل مرة ، لتتأكدى من أنك لم تخطئى معناها ومدلولها ، قبـل أن تنتقلى إلى السطر التالى من خطابى ، ولكننى أجدك فى هذا على حقّ ..

أنا نفسى أدهشتنى هذه الحقيقة ، حينما تغلغلت فى أعماقى لأول وهلة ..

كان ذلك بعد أن انتهيت من خطابى لك أمس ، وأعطيته لشقيقى الصغير (وليد) ، ليضعه فى صندوق البريد المجاور لمنزلنا الجديد ..

ذهبت بعدها أستلقى فى فراشى ، وقد شملنى شعور عجيب ، كأننى أسبح فى منطقة انعدام وزن ، وانعدام أفكار ..

كنت أحلّق فى سماء الهيام ، حينما سمعت تلك الألحان الساحرة مرة أخرى ..

كدت أقفـز من فراشى ، وأسرع إلى النـافذة يا (فريدة) ، لولا أن تنبهت إلى حقيقة عجيبة ، اختلج لها قلبي كجناحى عصفور صغير ، يبدأ درسه الأول فى فن الطيران ..

لم تكن هـذه الموسيقى العذبة تأتى من النافذة هـذه المرة ..

ولا من حجرة (وليد) ..

كانت تنبعث من أعماق أنا ..

هل يمكنك تخيّـل هذا يا (فريدة) ؟..

هل انتابك ذلك الشعور العجيب يوماً ؟ ..

هل أحسست أن دماءك أنغـام تتردّد على أوتار عروقك ؟ .. وأن خلاياك تتراقص فى نشوة ، استجابة لموسيقى ساحرة تعزفها أعماقك ، وينظمها إيقاع خفقات قلبك ؟ ..

هل شعرت بهذا يوماً يا (فريدة) ؟..

إنه شعور عجيب رائع ، ينتزعك فى رفق وهوادة من عالم الواقع ، ويحلّق بك فى عالم لذيذ حالم ..

ووسط هذه الأنغام الداخلية العذبة ، ارتسمت أمام عينىّ صورة جارنا الوسيم ..

رأيته بعين الخيال يبتسم فى وجهى ، ومن عينيه الساحرتين يطلّ حب عميق جارف ..

وبادلته الابتسام ..

بادلته نظرة الحب العميقة ..

وعرفت لحظتها أننى عاشقة ..

أعلم يا صديقتى العزيزة أنك سترفضين هذا المصطلح ..

سترفضينه بشدة ..

وستهتفين أن هذا مجرد عبث ، وأحلام مراهقة ، وأن الحب لا يأتى أبداً بمثل هذه السرعة ، فما بالك بالعشق ؟

ستتصوّرين أن موسيقاه الساحرة قد أيقظت فى أعماق ذلك الحلم ، الذى يراود كل الفتيات فى مثل عمرنا ..

حلم الحب الرومانسى الجميل ..

حلم فارس الأحلام ، الذى يمتطى جواداً أبيض ، ويسعى إلى محبوبته ، ويعزف نغمات حبه على أوتار قلبها ..

وتصوّرك هذا ليس مجحفاً ..

ولكنه ليس صحيحاً ..

لقد مسّت الموسيقى شغاف قلبى حقّاً ، وأيقظت الكثير من مشاعرى وأحلامى ، ولكننى لست مراهقة كما تعلمين ..

صحيح أننى فى التاسعة عشرة من عمرى ، ولم أتجاوز بعد تلك المرحلة من العمر ، التى يطلق العلماء والأدباء عليها اسم (فترة المراهقة) ، ولكننى لم ولن أفكر بالأسلوب الذى يدّعون أننا نفكر به فى هذه المرحلة ..

أنت تعلمين أننى دائماً عقلانية ، منطقية ، رصينة .

ولا ريب أنك مازلت تذكرين (أشرف) .. ذلك الشاب الوسيم الثرى فى (بور سعيد) ، والذى حاول طويلا أن يلقى شباكه حولى ..

أنت تعلمين كم هو وسيم ، أنيق ، جميل ، وكم من

الفتيات كنّ يتمنين الارتباط به ، وتعلمين أيضاً أننى كنت أرفضه ؛ لأننى رأيت فيه ما لم تره الأخريات ..

رأيت غروره المختفى خلف وسامته ، وعقله الفارغ المستتر وراء أناقته وثرائه ..

لو أننى أفكر بأسلوب المراهقة ما لاحظت كل ذلك ، ولبَدَا لى (أشرف) مثاليًّا ، بشبابه ، وملاحته ، وسيارته الفارهة الفاخرة ، وأسرته صاحبة الملايين ..

ولكننى أبحث عن رجل ..

فارس أحلامى يا صديقتى العزيزة يحمل كل صفات الرجولة ، كما أراها أنا ..

والرجولة فى نظرى ليست شارباً ضخماً وعضلات مفتولة ، وصرامة بلا مبرر ..

الرجولة فى نظرى صفة واضحة ، لا تقبل المساومة ..

ولقد شعرت بهذه الصفة فى صاحب الأنغام الساحرة ..

تصوّرى أننى لا أعرف حتى اسمه ..

كل ما أعرفه هو أنه يسكن نفس العمارة التى نسكنها ، وأن نافذة حجرته تقابل نافذة حجرتى ، عبر المسقط الداخلى لعمارتنا ..

ولقد رأيته مرة ثانية هذا الصباح يا (فريدة) ..

كنت أفتح نافذة حجرتى ، بعد أن ارتديت ثيابى ، استعداداً لذهابى إلى كلية الآداب ، بصفتى طالبة فى السنة الثانية فيها ، حينما رأيته ..

اختلج قلبي ، وتصاعدت دماء الخجل إلى وجهى ، عندما تقابلت نظراتنا هذه المرة ، وارتجف جسدى وأنا أبتسم فى حياء ، ولكنه تجاهلنى تماماً ..

كانت نظراتنا تتواجهان ، ولكنه لم يبتسم ، بل ظل جامداً شارداً ، وكأنه لا يرانى ، ولا يشعر بوجودى ..

وتراجعت ابتسامتى ..

جمدت لحظات على شفتىّ ، ثم تلاشت فى بطء ، وأنا أشعر بالمهانة لتجاهله إياى ..

وأغلقت النافذة فى وجهه بحدة ، وسمعته يطلق

شهقة خافتة حينما فعلت ، ولكننى تجاهلته أيضاً : ووجدت نفسى أبكى ..

بكيت بدموع صامتة ، أليمة ، وقرَّرت ألاَّ أفتح هذه النافذة أبداً ..

ولكننى لم أستطع ..

لم أكد أرجع من كليتى ، وأسمع أنغامه الساحرة، التى تنساب إلى حجرتى ، حتى أسرعت أفتح النافذة ، ونسيت قرار الصباح هذا ، وأنا أتطلَّع إلى محياه الجميل ، وأستمع إلى موسيقاه العذبة ..

ونسيت نفسى يا (فريدة) ..

نسيت نفسى ساعة كاملة ، وأنا أستمع إليه ، وأتأمل وجهه فى هيام ، وهو منهمك فى نقل أصابعه الذهبية فوق أصابع (البيانو) الكهربائى ، وعيناه سابحتان بعيداً ، دون أن يديرهما نحوى لحظة واحدة ..

وأخيراً اختتم لحنه ..

أنهى اللحن بمعزوفة رائعة ، تصلح نشيداً للملائكة.

معزوفة انتزعت من صدرى آهة إعجاب ، وجعلتنى أصفق فى حرارة وإعجاب ..

وأدار هو عينيه الذهبيتين إلىَّ فى مزيج من الدهشة والحيرة ..

وتوقف كفَّاى قبل أن أواصل تصفيقى ..

وتصاعدت دماء الخجل الحارة إلى وجهى ، وتصاعدت ضربات قلبى فى عنف، وعيناى مسمَّرتان فى عينيه ..

وفتح شفتيه الرقيقتين لينطق بكلمة ما ..

كلمة لم أسمعها أبداً ؛ لأننى أسرعت أغلق النافذة فى وجهه ، وأنا أرتجف فى انفعال شديد ..

انفعال مازال يتملكنى حتى هذه اللحظة يا صديقتى العزيزة ..

وشعرت ، لحظة أغلقت النافذة ، أننى أحتاج لوجودك إلى جوارى ..

أحتاج إليك لأصف لك مشاعرى وأحاسيسى ..

وأيقنت أننى عاشقة ..

عاشقة حتى الأعماق يا (فريدة) ..

وصدقيني لقد وجدت صعوبة بالغة فى كتابة هذا الخطاب لك ..

لقد عجزت طويلا عن العثور على كلمة مناسبة ، أبدأ بها خطابى ..

وأخيراً وضعت هذه الكلمة ، التى أثارت دهشتك فى أول الخطاب ، وشعرت بالراحة ، حينما ألقيت اعترافى فى البداية ، واستطعت إكمال الخطاب ..

وأنا أنتظر ردّك يا (فريدة) ..

أنتظره على أحرّ من الجمر ..

أرسلى الرد الآن يا (فريدة) ..

الآن يا صديقتى العزيزة ..

صديقتك العاشقة

(صفاء)

* * *

٣ ـ الصدمة ..

الخميس : السادس من مارس .

عزيزتى (فريدة) ..

وصلنى خطابك العاجل ، الذى أرسلته ردًّا على خطابىَّ إليك ، وقرأت ردك الذى كنت أتوقعه ، والذى أشرت إليه فى خطابى السابق ..

إنك ترفضين وصف مشاعرى نحو (تامر) بالعشق..

ترفضين حتى أن تطلق عليه اسم الحب ..

وأنت تهاجميننى بشدة فى خطابك ، وتطلبين منى أن أفكر فى تعقُّل وحكمة ، وألاَّ أستسلم لمشاعر مفاجئة فيَّاضة ، وتذكريننى بأحاديثنا ومناقشاتنا السابقة ، ورأينا المشترك فى رفض الحب السريع ، أو الحب من أول نظرة ..

ولكننى أحب أن أقول لك يا صديقتى العزيزة إن المناقشات والآراء النظرية قد تنهار دفعة واحدة ، إذا ما واجهت حقائق الحياة ..

إنه مثل عامىّ قديم يا (فريدة) ، أو حكمة من حكماء الأوائل ، تقول : « ليس من يده فى الماء كمن يده فى النار » ..

وهم على حقّ ..

فمن السهل على من يضع يده فى الماء ، أن يطالب من يضع يده فى النار بالصمود والقوة ، ولكن رأيه هذا قد يختلف تماماً ، إذا ما كانت يده هو فى النار ..

إننى لا أرفض ما جاء بخطابك يا (فريدة) ، ولكننى أناقشه ، فأنا أعلم أنك تبغين صالحى ليس أكثر ، ولكن الأمور تبدلت كثيراً منذ خطابى الأخير إليك ..

لعلك تساءلت فى البداية كيف عرفت اسم (تامر) ، وعرفت أنه ذلك العازف ، ذو الأصابع الذهبية ، الذى فتنتنى موسيقاه ، وألهبتنى ملامحه ..

ولذلك قصة يا (فريدة) ..

قصة بدأت وانتهت فى اليوم التالى لخطابى السابق ..

وبالتحديد يوم الثالث من مارس ..

كنت قد عدت من الكلية ، ووقفت إلى جوار

النافذة أستمع إلى موسيقى (تامر) ، وأسبح فى بحر الهوى والعشق ، وهو كعادته يتجاهلنى تماماً ، ويشرد ببصره بعيداً ، عندما دخلت أمى إلى حجرتى فجأة ..

ولعلها طرقت الباب كثيراً قبل أن تدخل ، ولكننى لم أسمعها ، فقد كنت فى عالم آخر ..

ووجدتها فجأة أمامى ..

وجدتها ساخطة ، تجمع ما بين الغضب والدهشة ، وهى تنقل بصرها بينى وبين (تامر) ، الذى لم يبد أى اهتمام بظهورها المفاجئ ..

وشحب وجهى فى فزع ، وحاولت أن أشرح الأمر لأمى ، ولكنها هتفت فى غضب :

— ماذا تفعلين هنا ؟

لم أستطع أن أنطق بحرف واحد أمام ثورتها ، والتفتت هى إلى (تامر) ، الذى توقف عن عزفه ، وتطلّع ناحيتنا بتلك النظرة ، التى تجمع ما بين الدهشة والحيرة ، وصاحت به أمى فى غضب :

— إلى ماذا تنظر أيها الوقح ؟

ظل يتطلّع إليها ، وغمغمت شفتاه بكلمات خافتة لم نسمعها ، وإن أطلّ من عينيه حزن عميق ، يختلط بدهشته ، وعادت أمي تهتف فى غضب :

– أنت شاب وقح غير مهذّب .

ازدادت الحيرة فى عينيه ، وهو يتطلّع إلينا ، وارتجفت شفتاه فى ألم ، وأسرعت أمي تغلق النافذة فى وجهه ، وتصرخ فى وجهى بغضب هائل :

– ألهذا تسرعين إلى حجرتك ، فور عودتك من الجامعة ؟

ثم جذبتنى من معصمى فى قوة ، وهى تستطرد :

– تعالى معى .. سأشكو هذا الشاب الوقح لأمه .

هتفت فى ضراعة ، وأنا أتبعها مرغمة :

– كلاً يا أمى .. أرجوك .. أنا الملومة لا هو ..

ولكنها لم تستمع لضراعتى ، وهى تدفعنى فى قوة إلى خارج شقتنا ، وتدق باب شقة (تامر) ، الذى يجاورنا فى غضب ..

واستسلمت لها وأنا أبكى فى صمت ..

أبكى حبى الذى انهار قبل أن يبدأ ..

وفتحت لنا أم (تامر) الباب ..

لم أكد أراها ، حتى علمت من أين أتى (تامر) بجمال وجهه ووسامته ..

كانت أمه صورة منه ..

صورة تفوقه جمالاً ورقةً وعذوبة ..

وفعل جمالها الساحر فعله مع أمى ، فقد تلاشت ملامح الغضب من وجهها بغتةً ، واصطبغت ملامحها بحمرة خفيفة ، وغمغمت فى لهجة أقرب إلى الاعتذار ، وهى تتطلّع إلى وجه أم (تامر) التى جمع وجهها الجميل ما بين الدهشة والترحاب :

– معذرةً يا سيدتى .. أنا جارتكم الجديدة .

تهللت أسارير وجه أم (تامر) ، وتحركت لتفسح لنا مجالاً للدخول ، وهى تقول فى لهجة مرحّبة وَدُود :

– مرحباً بك يا سيدتى .. كان من الواجب أن آتى أنا لزيارتك أولاً ، ولكننى كنت أنتظر حتى تستقر

بكم الأمور ، وأنا أشكر لك مبادرتك الطيبة هـذه .. تفضلا على الرحب والسعة .

ترددت والدتى لحظة ، ثم خطت داخل شقة (تامر) ، وهى تغمغم فى اعتذار :

– معذرة لقدومنا دون موعد سابق ، ولكن ..

قاطعتها والدة (تامر) فى ترحاب :

– بل هو منزلك فى أية لحظة يا سيدتى .

وقادتنا فى حماس صادق إلى حجرة جلوس أنيقة ، تنم عن ذوق رفيع ، وقالت وهى تدعونا للجلوس :

– ماذا يمكننى أن أقدم لكما ؟

اصطبغ وجه أمى بحمرة الخجل ، أمام هذا الترحاب الشديد ، وغمغمت :

– لا شىء يا سيدتى .. إنما أردت التحدث إليك فحسب .

جلست والدة (تامر) إلى جوارها ، وسألتها فى اهتمام ، دون أن تفارق الابتسامة الودود وجهها :

– خيراً بإذن الله .

ترددت والدتى لحظة ، ثم سألتها فى هدوء :

– إن لك ولداً شاباً ، أليس كذلك ؟

سرَى الحنان فى وجهها ، وهى تجيب :

– تقصدين (تامر) ؟ ! .. نعم .. إنه ولدى الوحيد .

واختلج قلبى وأنا أسمع اسمه لأول مرة ، وشعرت بنشوة عارمة تسرى فى عروق ، وأنا أنتظر المزيد من بين شفتيها فى اهتمام ، فى حين ابتلعت والدتى ريقها ، وقالت فى اضطراب :

– لقد جئت أشكوه إليك .

ارتفع حاجبا والدة (تامر) فى دهشة ، وغمغمت فى حيرة :

– جئت تشكين (تامر) ؟ ! .. لماذا ؟ .. ماذا فعل ؟

خفضت وجهى فى حياء ، فى حين قالت أمى :

– إنه يغازل ابنتى عبر النافذة .

هتفت والدة (تامر) بمزيد من الدهشة :

ـ يغـازل ابنتك ؟ ! .. لا ريب أنك مخطئـة يا سيدتى ..

اكتسب صوت أمى بعض الصرامة ، وهى تقول :

ـ لست مخطئة يا سيدتى ، لقد رأيته بعينى ، وهو يبادلها إشارات الغزل عبر النافذة .

أدهشنى ذلك الألم الذى ارتسم فى عينيها ، وذلك الحزن الشديد ، الذى ملأ كل لمحة من لمحات وجهها ، وهى تغمغم :

ـ يبادلها إشارات الغزل ؟! .. أؤكد لك أنك مخطئة يا سيدتى .

قالت أمى فى صرامة :

ـ كلاّ .. لست مخطئة .

أحنَتْ والدة (تامر) رأسها فى ألم ، وقالت وهى تبتسم فى حزن :

ـ حسناً يا سيدتى .. سأثبت لك أنك مخطئة .

ونهضت دفعة واحدة ، وغادرت حجرة الجلوس

قبل أن تنطق والدتى بكلمة أخرى ، وهتفت أنا فى توسُّل :

ـ إنه لم يفعل يا أمى .. أقسم لك .

أشارت إلىّ أن أصمت ، ورجعت فى مقعدها إلى الوراء ، وهى تتطلّع إلى باب حجرة الجلوس ، انتظاراً لعودة والدة (تامر) ..

وفجأة رأيت وجه أمى يفقد صرامته ، ورأيت حزناً عميقاً يملأ كيانه ، وخيل إلىّ أن دمعة كبيرة قد تكوّنت فى عينيها بسرعة عجيبة ، وبدأت تنحدر على وجنتيها فى صمت ، وقد أضيف بعض الجزع إلى ملامحها ..

وأدرت عينى إلى حيث تنظر أمى ..

ورأيته ..

رأيت (تامر) ، وهـو يأتى إلى حجرة الجلوس مع أمه ..

وانتقل حزن أمى وجزعها إلىّ يا (فريدة) ..

لقد كانت أمه تقوده إلى الحجرة ، وهو يتلمس طريقه إليها ..

كان صاحب الأصابع الذهبية ، والألحان الساحرة ، والعينين الفاتنتين ، كفيفاً يا (فريدة) ..

كان (تامر) أعمى لا يبصر ..

معذرة يا (فريدة) .. لم أعد أقدر على إضافة حرف واحد ، فدموعى تبلّل الخطاب ..

سأكمل ما حدث فى خطاب آخر يا (فريدة) ..

صديقتك المعذّبة

(صفاء)



٤ ـ الليل الطويل ..

الجمعة : السابع من مارس .

عزيزتى (فريدة) ..

عجزت فى خطابى السابق لك أمس أن أصف ما حدث ، حينما تجلّت لنا ـ أمى وأنا ـ هذه الحقيقة الرهيبة ..

حقيقة أن (تامر) أعمى ..

لا يمكنك أن تتصورى يا (فريدة) ، كيف كان وقع هذه الحقيقة علينا ، حينما عادت والدة (تامر) إلى الحجرة ، وهو يستند إلى كتفها ، دون أن ينطق أيهما بكلمة واحدة ..

لقد غاضت الدماء من وجه أمى، الذى صار شاحباً كالقطن الأبيض ، وانهمرت دموعها غزيرة على وجهها من عينيها ، اللتين اتسعتا فى ألم ودهشة، ورأيت عضلات وجهها ترتعد وترتجف ، وشفتيها تنفرجان فى أسف ..

كان من الواضح أن الندم ينهش عروقها نهشاً ، بعد أن تبينت مدى الظلم الذى أوقعته على المسكين ، حينما اتهمته بمغازلتى عبر النافذة ..

أما أنا فلم أبك يا (فريد) ..

ظلت عيناى جافتين ، وإن غرق قلبى فى بحر من الدموع ..

كنت أتطلّع إلى وجهه المليح الجذّاب ، وعينيه اللتين فى لون الذهب المحروق ، وأنا أرتجف ..

كان من العسير علىّ أن أتصوّر أن هاتين العينين خاليتان تماماً من الحياة ..

وسقطت فوق مقعدى من هول الصدمة ..

أما والدتى ، فقد انتزعت نفسها من مقعدها انتزاعاً ، وهبّت إلى (تامر) ، تحتضنه فى حنان ، وتقبّل وجنته فى أمومة ، وهى تغمغم :

— كيف حالك يا ولدى ؟

ابتسم (تامر) ابتسامة شاحبة ، وهو يقول :

— فى خير حال يا سيدتى .. شكراً لسؤالك .

التفتت أمى بعينيها الدامعتين إلى أم (تامر) ، فى اعتذار لا يحتاج للنطق ، وقابلتها عينا الأم فى تسامح وودّ ، وكلتاهما تذرفان الدمع الصامت ، ورأيت (تامر) يقبض كف أمه فى قوة ، وهو يقول فى جزع :

— أماه .. هل تبكين ؟

تصوّرت أنها ستنكر ذلك ، ولكننى فوجئت بها تقول فى هدوء وحنان :

— نعم يا (تامر) ، ولكننى لست حزينة .

رفع كفيه فى بطء ، وتحسس وجه أمه فى حنان ، ومسح دموعها بكفه فى رقة ، وقال فى صوت أشد عذوبة من ألحانه :

— لا أحب أن تبكى يا أماه .. لا أحب هذا أبداً .

ربّتت أمه على كتفه فى حنان ، وابتسمت وهى تقول :

— لن أفعل يا (تامر) .. لن أفعل يا ولدى .

قادته أمه فى هدوء إلى حيث أجلس ، ونهضت أنا فى صعوبة ، لأقف أمامه ، وأمه تقول :

– أحب أن تتعرّف بجارتك الجديدة ..

أسرعت أنا أقول :

– (صفاء) .. اسمى (صفاء) .. طالبة بالسنة الثانية ، بكلية آداب عين شمس .

مدّ كفه نحوى ، وابتسم وهو يقول :

– يا لها من مصادفة !!.. مرحباً بك يا آنسة (صفاء) .

وارتجف كفى فى راحته ، وأنا أطوف وجهه بعينىّ ، فى حين هتفت أمه فى فرح :

– إنها مصادفة طريفة بالفعل ، فـ (تامر) أيضاً طالب بالسنة الثانية ، بنفس كليتك .. إنكما زميلين إذن .

سألته فى دهشة :

– عجباً !!.. لماذا لم نلتق فى الكلية إذن ؟

تجهّمت ملامحه بغتةً ، وغمغم فى ضيق :

– ربما لم تسنح الظروف بعد .

ثم استدار ، وهو يقول فى صرامة :

– أريد أن أعود إلى حجرتى يا أماه .

أدهشتنى صرامته المفاجئة ، ولكن أمه ربّتت على كتفى ، ومنحتنى نظرة معتذرة ، وأسرعت تقوده إلى حجرته ، ثم عادت إلينا وهى تجفف دمعة فارة من وجنتها ، وجلست إلى جوار أمى ، التى غمغمت فى اعتذار :

– تقبّلى أسفى يا سيدتى ، فلم أكن ..

قاطعتها والدة (تامر) فى حنان :

– لا عليك يا سيدتى .. فلنشكر هذا الخطأ ، الذى منحنا فرصة التعارف .

ثم تنهدت ، وقالت فى حزن :

– إن (تامر) هو ولدى الوحيد ، بل هو كل ما لدى فى الحياة ، بعد أن رحل والده عنا ، منذ ثلاث سنوات .

سألتها أمى فى حنان :

– هل فقد (تامر) بصره فى حادث ما ؟.. أو مرض ما ؟

هزّت والدته رأسها نفياً ، وقالت فى حزن :

– كلاّ .. إن (تامر) لم يبصر أبداً .. لقد وُلد

بعصب بصرىّ ضامر ، ولم يكتب له أن يرى النور أبداً.

غمغمت أمى بكلمات خافتة ، وكأنهـا تواسى أم (تامر) فى محنتها ، ولكن هذه الأخيرة أسرعت تنفض حزنها ، وتبتسم فى شحوب ، وهى تستطرد :

ـ حينما وُلِدَ (تامر) كنت أكثر نساء الأرض سعادة بجماله الواضح ، وملاحته العـذبة ، وكان زوجى أيضاً يكاد يطير فرحاً ، فهو من ذلك الطراز القـديم ، الذى يكره إنجاب الإناث ، ويجد الفخر ، كل الفخر ، فى إنجاب الذكور فحسب ، وأخذ يتباهى بمولوده الأول ، حتى فاجأتنا تلك الحقيقة القاسية ..

تنهدت فى عمق ، وصمتت لحظة ، وكأنهـا تحـاول التغلُّب على انفعالهـا ، ثم عادت تقول :

ـ لست أذكر متى ، وكيف تنبهنـا إلى هـذا ؟.. ولكن الأمر حينذاك كان صدمة قاسية لنا ، حتى أننى قضيت أسبوعاً كاملا أبكى وأنتحب ، وأنا أتحسس ملامح ابنى الجميلة ، وأقبِّل عينيه الساحرتين .

وابتسمت فى حزن ، قبل أن تردف :

ـ ثم ارتضينا قضاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ واحتملنا نكبة صغيرنا ، وقرّرنا أن نمنحه كل حبنا وحناننا ، حتى لا يشعر بعجزه أبداً ، ولكنه كان بالغ الذكاء ، وربما كان هذا تعويضاً من المولى ـ عزّ وجلّ ـ عن عاهته ، ولم يكد يبلغ عامه الثانى حتى كشف الحقيقة بنفسه .

وخيل إلىّ ، وأنا أستمع إليها فى اهتمام ، أن شفتيها قد عجزتا عن مواصلة هذه الابتسامة المفتعلة ، فنفضتها عنها ، وعاد الحزن يرسم خطوطه العنيدة على وجهها ، وهى تستطرد :

ـ اكتشف عقله ، الذى يفوق عمره ، أن الآخرين يصفون شيئاً لا يفهمه هو ، ويتحـدثون عن مسمَّيات لا يمكنه إدراكها ، كالألوان والأوصاف ، وعرف أنه يختلف عنهم ، فانزوى وانطوى ، وصنع حوله حاجزاً يصعب اختراقه .. كان يقضى الساعات ساكناً ، صامتاً ، حتى أننى كنت أدقق النظر فى صدره بعض الأحيان ، لأتأكد من أنه ما زال يلتقط أنفاسه .

عادت إلى الصمت مرة ثانية ، ثم تابعت فى حنان واضح :

– حتى كان عيد ميلاده الثالث .

قالت هذه العبارة ، وابتسمت ، وكأنها قد التقطت لمحة مفرحة ، وسط كل هذه الأحزان ، ثم عادت تقول :

– كنا نحتفل بعيد ميلاده الثالث فى منزل والدىَّ ، وكان والدى يحاول انتزاعه من عزلته وانطوائه ، حينما حمله إلى (بيانو) قديم تملكه أمى ، وكشف (تامر) أن الضغط على أصابع (البيانو) يصدر أنغاماً مختلفة .. يومها تهللت أساريره ، وابتسم ابتسامة فرحة ، جعلت قلبى يرقص طرباً ، وارتفعت ضحكاته لأول مرة فى سعادة ، وهو ينقل أصابعه بين نغمات (البيانو) ، ومنذ هذه اللحظة تبدّلت حياة (تامر) تماماً ..

جففت دمعة تسللت عبر مقلتيها ، وهى تواصل :

– لقد أصبح يعشق (البيانو) ، ويقضى أسعد أوقاته معه ، والتقطت جدته هذا الخيط ، وأخذت

تلقنه فن العزف ، وهو يستوعب كل هذا بسرعة تشفّ عن ذكائه ، حتى أنه كان يستطيع العزف بمهارة عندما بلغ السادسة من عمره ، حينما التحق بأول سنوات دراسته .

مطّت شفتيها ، وعادت تقول :

– لم تكن دراسته بالأمر السهل ، أو الهيِّن ، نظراً لعجزه ، ولهذا الليل الطويل الذى يعيشه ، ولكنه كان شديد العناد ، قوى العزيمة ، ونجح فى اجتياز كل العقبات التى واجهته ، حتى حصل على الثانوية العامة بتفوّق ، منذ خمس سنوات .

قاطعتها فى دهشة :

– خمس سنوات ؟!.. ولكنك تقولين إنه طالب بالسنة الثانية فى ..

قاطعتنى هى فى هدوء :

– لقد حدث هذا بسبب رحيل والده .

قالت والدتى فى حنان :

– لابد أنه كان يحبّ والده – رحمه الله – كثيراً .

ابتسمت والدة (تامر) فى حزن ، وقالت :

– إن والد (تامر) لم يمت .. لقد رحل فحسب .

ارتبكت والدتى ، وتلعثمت وهى تغمغم :

– ولكن !! .. لقد ظننت .. أعنى أن ..

عادت والدة (تامر) تبتسم فى حزن، وهى تقول :

– إن هذا لا يضايقنى يا سيدتى ، فهذا حقه .

ثم لاذت بالصمت طويلاً ، حتى أن والدتى أبدت حركة خافتة ، تبين رغبتها فى النهوض ، لولا أن عادت والدة (تامر) تقول :

– لقد أخبرنا أحد الأطباء ، الذين باشروا (تامر) أن مرضه النادر يعود إلى أسباب وراثية ، لأننى ووالده أبناء عم ، نحمل بعض الصفات المتشابهة ، بسبب منشئنا من أصل عائلىّ واحد ، ولقد ولّد هذا فى أعماق خوفاً شديداً من الإنجاب مرة ثانية ، وأصبحت أرفض هذا تماماً ، على الرغم من إصرار زوجى على إنجابنا طفلاً آخر ، ولقد احتمل هو رفضى طويلاً ، حتى ظننت أنه قد استسلم له ، فقد التحق (تامر) بكلية الآداب ،

واجتاز عامه الأول فيها بتقدير ممتاز ، وأصبح يقترب أكثر من نهاية رحلة دراسته ، ولكننى فوجئت به يخبرنى ذات يوم أنه قد قرّر الزواج من أخرى ، حتى لا يُحرَم الأبناء الأصحاء ..

غمغمت أمى بكلمة آسفة ، ولكن والدة (تامر) لم تنتبه إليها ، وواصلت فى حزن :

– ولم يكن أمامى ما أفعله .. وتصوّرت لحظتها أن رفضى سيكون قمة فى الأنانية ، وتركته يفعل ما أراد ، دون أن أنتبه إلى ما سيحدثه هذا من أثر قوى فى نفس (تامر) ، فقد بدا مصدوماً حينما تزوّج والده ، وعاد إلى عزلته وانطوائه، وأصبح يقضى وقته كله فى حجرته يعزف على ذلك (الأورج) الكهربائى ، الذى أهداه إليه والده ، فى آخر عيد ميلاد له ، قبل أن يقيم الوالد بصفة شبه دائمة فى منزله الجديد ، واكتسب عزفه حزناً عجيباً ، ورفض (تامر) الذهاب إلى كليته منذ ذلك اليوم .

وجدت نفسى يا (فريدة) أندفع ، قائلة :

– يمكننى أن أعاونه ، فقرراتنا واحدة و ...

لم أستطع إكمال عبارتى ، بسبب الخجل الذى انتابنى ، ولكن والدته هتفت فى رجاء :

– ليتك تفعلين يا (صفاء) .. سيكون أسعد أيامى حينما يعود إلى الجامعة .

وغمغمت أمى فى حنان :

– نعم يا (صفاء) .. ليتك تفعلين .

وهكذا يا صديقتى العزيزة ، وجدت نفسى أقترب أكثر من (تامر) ..

أهو القدر يا (فريدة) ؟..

أهو المصير ؟..

أريد رأيك يا (فريدة) ، وبسرعة ..

صديقتك الحائرة

(صفاء)

* * *

٥ – الأمل ..

الأحد : التاسع من مارس .

صديقتى العزيزة (فريدة) ..

بدأت أمس مرحلة جديدة مع (تامر) ..

دخلت علاقتنا منعطفاً جديداً ، يحتاج إلى الحذر والتروّى ..

ذهبت أمس لأشاركه استذكار دروسه ، أو – بتعبير أدق – لأدفعه إلى ذلك ، وكان أقل ما يمكن أن توصف به مقابلتنا الأولى هى أنها محبطة ..

لقد استقبلنى (تامر) فى حجرته بأدب جم ، وبأسلوب شديد التهذيب ، ولكنه يخلو من الارتياح ، كأنه مضطر لذلك ، أو كأننى ضيف ثقيل له مكانة خاصة ، تجبره على معاملته باحترام ..

ولقد شعرت بحرج وخجل شديدين يا (فريدة) ، حتى كدت أتخلّى عن رغبتى فى معاونته على اجتياز محنته ، وأسرعت عائدة إلى شقتنا ، لولا ضغطة والدته

الحانية على ذراعى ، ولولا نظرة الاعتذار والضراعة فى عينيها ، وكأنها ترجونى ألا أنزع منها ذلك الأمل الأخير ..

ولولا رغبتى الصادقة فى معاونته ..

قالت أمه ، وهى تقدمنى له :

– لقد جاءت (صفاء) لتتعاونا على استذكار دروسكما يا (تامر) .

أجابها بصوت خافت ، وبأسلوب مهذب ، خال من التعبير تماماً :

– على الرحب والسعة .

انصرفت أمه بعد أن منحتنى نظرة اعتذار ورجاء أخيرة ، ووقفت أنا وهو صامتين بعض الوقت ، قبل أن يغمغم هو ، وهو يتحسس طريقه إلى أحد مقاعد حجرته :

– هلا جلست أولاً .

أسرعت أعاونه على التقاط المقعد ، ولكنه لم يكد يشعر بمحاولتى ، حتى قال فى حِدّة :

– إننى لا أحتاج لمعاونتك ، فهذه حجرتى ، وأنا أعرف كيف أتعامل مع أثاثها .

تراجعت فى خجل وارتباك ، ولكنه أسرع يردف فى اعتذار :

– لم أقصد إهانتك يا آنسة (صفاء) ، ولكننى لا أحب أن يعاوننى أحد فيما يمكننى أداءه وحدى ، فهذا ....

لم يكمل عبارته ، ولكننى فهمت ما يعنيه ..

إن هذا يشعره بالعجز ..

وشعرت بمزيد من الخجل والاعتذار ، وأضيف إليهما بعض الندم ، وأنا أغمغم :

– إنى أعتذر .

منحنى ابتسامة عذبة ، لم أر أجمل منها فى حياتى كلها ، وهو يقول :

– لا عليك .. إننى كثير النسيان .. أعنى أننى أنسى بسرعة .

ابتسمتُ فى حنان ، وأنا أتأمل محياه الجميل ،

وشعرت بالخجل من عينيه اللتين تواجهان وجهى ، على الرغم من معرفتى أنه لا يرانى ، وأشحتُ بوجهى ، وأنا أتناول أحد كتب الفلسفة ، وأقول :

ــ ما رأيك أن نبدأ بالفلسفة ؟

هزّ كتفيه ، وقال فى لا مبالاة :

ــ كما يحلو لك .

وجلس إلى جوارى هادئاً ، مستسلماً ، وبدأت أنا أقرأ ، وبدا وكأنه يستمع إلى ما أقول فى البـداية ، ولكنه لم يلبث أن شرد بأفكاره بعيداً ، حتى أنه لم يشعر حينما توقفت أنا عن القراءة ، فسألته فى هدوء :

ــ هل تتابعنى ؟

كنت أتوقّع منه أن يدعى متابعة قراءتى ، ولكنه أجاب فى برود :

ــ كلاً .

سألته فى ضيق :

ــ لماذا ؟

مطّ شفتيه ، وقال فى بساطة :

ــ لست مقتنعاً بالعودة إلى الاستذكار ، ولا بعلم الفلسفة هـذا .

تركت الكتاب ، واعتدلت نحوه ، وأنا أسأله :

ــ ألا تطمح إلى مستقبل أفضل ؟

غمغم فى سخرية مريرة :

ــ مستقبل ؟!

هتفت فى حماس :

ــ نعم .. الدراسة تمنحك مزيداً من المعارف والثقافة ، وتجعل عقلك أكثر قدرة على استيعاب الحياة ، وشهادتك تمنحك فرصة أفضل فى العمل والتقدم .

عقد حاجبيه فى شدة ، وهو يقول فى توتر :

ــ إننى لن أحصل على عمل قط .

سألته فى هدوء ، وأنا أحاول تخفيف توتره :

ــ كل إنسان لابدّ له من العمل ..

هتف فى حِـدّة :

ــ وهل تتصوّرين أننى قادر على القيام بأى عمل ؟.. إننى كفيف .. ألم تلحظى ذلك ؟.. هل تحاولين التظاهر بالعكس ؟

ابتلعت ريقى فى صعوبة، وغمغمت وأنا أبذل جهداً كبيراً للحفاظ على هدوئى :

– كلاً .. إننى لا أحاول ذلك .

قال فى عصبية :

– إذن فأنت تعاملينني كما لو كنت طفلاً صغيراً مدللاً.

عدت أقول فى هدوء :

– أنا لا أفعل هذا أيضاً .

صاح فى غضب :

– ماذا تهدفين إليه من استذكارنا معاً ؟

قلت وقد بدأ الغضب يتسلل إلى صوتى ومشاعرى :

– الاستذكار فحسب يا (تامر) .

أطلق ضحكة تجمع بين الغضب والسخرية والشك، وعاد يقول فى عصبية :

– هل تتصوَّرين أننى من السذاجة بحيث أصدِّق ذلك ؟

انتابنى شعور بالمهانة من معاملته القاسية ، ولكن رغبتى فى معاونته جعلتنى أكتم هذا الشعور فى أعماقى ، وعدت ألتقط كتاب الفلسفة ، وأقول :

– هل نواصل قراءة كتاب الفلسفة ؟

رأيت الغضب يسرى فى وجهه ، وفى حاجبيه ، اللذين انعقدا فى شدة ، وشفتيه اللتين التقتا فى حَنَق، وقال فى لهجة استفزازية ، وكأنه يتعمَّد إثارتى :

– ما فائدة علم الفلسفة هذا ؟.. إنه علم سخيف لا معنى له .

أجبته فى هدوء :

– إنه علم العقل، الذى يجعل نظرتك للأمور أوسع وأشمل ، ويجعلك ترى الحياة برؤية جديدة رحبة و ...

قاطعنى فى حِدَّة :

– هل نسيت مرة أخرى أننى لا أرى الحياة قط ؟

قلت فى هدوء ، بذلت جهداً خارقاً للحفاظ عليه :

– إننى لا أقصد برؤية الحياة ذلك المعنى الحرفى ، الذى تصوَّرته أنت ، فكم من المبصرين يعجزون عن رؤية أبسط الحقائق فى هذه الحياة ، مثل الصدق ، والعدل والأمانة والضمير ، على الرغم من أن حِدَّة بصرهم قد تبلغ حد الكمال .

هتف فى عصبية :

– ها قد عدنا للفلسفة العقيمة .

حاولت أن أقلّد بروده الأول ، وأنا أقول :

– عقيمة أو غير عقيمة .. إنها مقرّرة علينا ، وسواء قبلناها أو رفضناها ، فلابد لنا من استذكارها .

قال فى عصبية :

– لابد لك وحدك من ذلك ، فأنا أرفض هذا .. وأرفض وجودك هنا أيضاً .

عند هذه النقطة فقدت قدرتى على الاحتمال يا (فريدة) ..

لقد كان يطردنى من حجرته ومن حياته بلا رحمة ..

ووجدت نفسى أفقد السيطرة على هدوئى ، وأنفجر فى وجهه صائحة :

– كفى يا (تامر) .. إننى لم أعد أحتمل .

بدت الدهشة على وجهه من هجومى المباغت ، ولكننى استطردت فى غضب :

– أنت ترفض أن يعاملك الناس كطفل مدلّل ،

ولكنك تتصرّف معهم بذلك الأسلوب تماماً ، وترفض أى محاولة للتقرب منك ، وإخراجك من عزلتك ، بل إنك تتمادى فتصنع حولك حاجزاً يصعب اختراقه ، وتتعمّد إهانة كل من يحاول معاونتك ، وتعمل على هدمه ، والإساءة إليه ، دون أن يخطر ببالك أن للآخرين مشاعرهم ، التى يرفضون المساس بها ، وإذا كنت قد قرّرت البقاء أبداً داخل أسوار هذا السجن ، الذى صنعت قضبانه بنفسك ، فهذا شأنك ، ولن أحاول مدّ يد المساعدة لك أبداً .

والتقطت كتابى فى حنق ، وأنا أتابع :

– سأنصرف يا (تامر) .. سأنصرف ، ولن أحاول اختراق عزلتك هذه أبداً .

أسرعت إلى باب الحجرة ، وقد تفجرت من عينىّ الدموع ، وانتابنى يأس شديد ، ولكننى قبل أن أمسّ مقبض الباب ، سمعت صوت (تامر) مختنقاً ، يقول :

– (صفاء) .

تسمّرت فى مكانى لحظة ، ثم أدرت وجهى إليه

فى بطء ، وهالنى وجهه الممتقع ، وهو يجلس على مقعده ساكناً ، وعيناه تعبّران عن تردّد وحيرة ..

كان من الواضح أنه يعانى صراعاً هائلاً فى أعماقه ..

عدت إليه فى خطوات بطيئة ، دون أن أرفع عينىّ عن وجهه ، وقد انتابنى شعور بالندم والحزن ، على ما سببته له من ألم وحيرة ، حينما انفجرت فى وجهه وهاجمته فى قسوة ، دون مراعاة آلامه ، التى دفعته لمهاجمتى فى البداية ..

ورأيت شفتيه تنفرجان فى بطء ، وترتجفان لحظة ، قبل أن يغمغم فى ألم :

— (صفاء) .

غمغمت وقد اكتسب صوتى حناناً دافقاً :

— أنا هنا يا (تامر) .

ترقرقت دمعة حائرة فى عينيه ، وهو يتحسس طريقه إلىّ فى الهواء ، فمددت يدىّ إلى كفيه الحائرتين ، ولم تكد أكفنا تلتقى فى الهواء وتتلامس ، حتى التقط كفىّ فى راحتيه بلهفة ، وسرت من كفيه رجفة انتقلت عبر كفى إلى جسدى كله ، وتركته يقودنى فى هدوء

إلى مقعدى المجاور له ، وعدت أجلس فى استسلام ، وقلبي يخفق فى قوة لهذا التبدّل المفاجىء فى معاملته ..

وظللنا صامتَيْن فترة طويلة ، وكفّاى ترقدان فى راحتيه مستسلمتين ، وامتقاع وجهه يزول تدريجيًّا ، حتى عاد ثغره العذب يفترّ عن ابتسامة خلاّبة ، وهو يغمغم فى هدوء :

— إننا لم ننته من استذكار درس الفلسفة بعد .

أتعلمين يا (فريدة) ؟ .. لقد كان يعتذر عما بدر منه ، دون أن يعلن ذلك صراحة ..

كان يؤيد محاولتى لمعاونتـه ، دون أن يجـرح كرامته ..

كان يؤكد لى أن الأمل موجود ..

وسأتمسك بهذا الأمل ..

سأتمسك به حتى آخر لحظة يا (فريدة) ..

صديقتك المتفائلة

(صفاء)

* * *

٦ ـ المحاولة

الثلاثاء : الحادى عشر من مارس .

صديقتى العزيزة (فريدة) ..

اجتزت منعطف الخطر فى علاقتى بـ (تامر) ..

أو ربما اخترقته على التوّ ..

المهم أن علاقتنا بدأت تدخل مرحلة استقرار ..

إنه يستقبلنى كل مرة بابتسامة واسعة ، تحمل السعادة والترحاب ، ويستمع إلىّ فى إصغاء واهتمام ، وأنا أقرأ على مسامعه دروس الفلسفة ..

ومن الغريب أن الفلسفة أصبحت علمه المفضّل يا (فريدة) ، وأصبح يستوعب دروسها بأسرع مما أفعل أنا ..

وفى مقابلاتنا الهادئة هذه تكشّفت لى جوانب جديدة فى شخصية (تامر) ..

إنه شاب رقيق الإحساس، شاعرىّ، ولكنه صلب كالفولاذ، مثابر على نحو يدعو للإعجاب، وعنيد ..

إننى أشعر أن كل ما يحتاج إليه (تامر) ، هو أن يوجه صفاته هذه إلى الاتجاه الصحيح ..

إنه شاب ممتاز يا (فريدة) ، ولكنه يفتقر إلى نقطة هامة ..

الثقة بالنفس ..

إننى أشعر أحياناً ، على الرغم من معاملته الرقيقة المهذّبة لى ، بعد لقائنا الأول ، أنه يحمل فى أعماقه حزناً عميقاً ، تراودنى أحياناً الرغبة فى أن أسأله عن سببه ، ولكننى أعتقد أنه من الأفضل أن أتركه، حتى يفصح .. هو عن مكنونات نفسه ، حينما يجد الوقت مناسباً لذلك.

وفى لقائى الأخير معه اليوم لاحظت أنه شارد ..

كنت أشعر أنه يسبح بأفكاره بعيداً عنى ، فتوقفت عن القراءة ، وسألته فى هدوء :

ـ هل تتابعنى يا (تامر) ؟

ابتسم فى خجل ، وقال :

ـ كلاً .. لقد شردت بعض الوقت ، ولكننى أحب أن استمع إليك وأنت تقرئين ، فواصلى .

ابتسمت ، وأنا أقول :

– الاستماع وحده لا يكفى يا (تامر) ، لابدَّ من التركيز أيضاً .

خفض وجهه ، وغمغم :

– واصلى يا (صفاء) :

عدت أواصل القراءة ، وأنا أنظر إليه بين الحين والآخر ، محاولة استشفاف ما يدور فى أعماقه ، حتى سألنى بغتة :

– كيف تبدين يا (صفاء) ؟

فاجأنى سؤاله ، ودفع دماء الخجل إلى وجهى ، فأجبته فى تلعثم :

– ماذا تعنى ؟

بدا الاهتمام على وجهه ، وهو يقول :

– صوتك رقيق للغاية ، ويبعث فى نفسى شعوراً بالراحةوالاسترخاء،ويدفعنى إلى الرغبةفى معرفة شكلك .

لا يمكنك تصوّر السعادة التى اجتاحت قلبى لعبارته الرقيقة يا (فريدة) ..

لقد شعرت أنها أجمل عبارة غزَل سمعتها فى حياتى .

واختلج قلبى ، وارتجفت أطرافى ، وشعرت بوجهى يكاد يتفجَّر من دماء الخجل ، التى اندفعت إليه حارة غزيرة ..

ولأول مرة أحمد الله – سبحانه وتعالى – لأن (تامر) لا يمكنه أن يرانى ، وإلا كشف حبى له على الفور ، ولقد بذلت جهداً حقيقيًّا لأغتصب ضحكة مرحة ، وأنا أقول فى صوت خافت ، خشية أن يفضحنى اختلاج صوتى :

– أنا فتاة عادية يا (تامر) ، لى وجه مستدير ، وشعر أسود ، وعينان عسليتا اللون .

غمغم فى صوت أشد خفوتاً من صوتى ، وبنبرة توحى بالدهشة :

– فتاة عادية ؟ !

بدا متردِّداً بعض الوقت ، ثم سألنى فى صوت خافت :

– هل .. ؟.. هل تسمحين لى بتحسس وجهك ؟

ارتجفت وأنا أغمغم فى دهشة :

– تتحسس وجهى ؟!

ازداد ارتباكه ، وهو يغمغم :

– إننى أقصد تبيّن ملامحك فحسب .

ترددت لحظة ، وأنا لا أتصوّر أنامله تتحسس وجهى ..

لقد كنت أرتجف لمجرد التصوُّر ..

ولكننى كنت أكره رفض مطلبه هذا ، فقلت وأنا أتصنّع المرح :

– أخشى ألاّ تعجبك ملامحى يا (تامر) .

أسرع يقول فى صوت يحمل كل الثقة :

– مستحيل .

ألجمتنى هذه الكلمة ، وعجزت عن النطق لحظات ، وحتى عندما تحدّثت ، كان صوتى يبدو متعثراً ، وأنا أقول :

– لا بأس يا (تامر) .

ولا أذكر أننى شعرت بمثل هذه الرجفة ، التى

اجتاحت جسدى كله فى حياتى كلها ، حينما رفع أصابعه فى بطء ، والتمس طريقه إلى وجهى ، ولمستنى أنامله ..

كان الاهتمام الشديد يبدو واضحاً على كل خلجة من خلجاته ، وأنامله تتحرّك فى بطء على وجهى ..

تحسس جبهتى ، وشعرى ، وأنفى ، وشفتىّ ..

وكنت أرتجف ..

وتحوّل ارتجافى إلى انتفاضة قوية حينما قال فى هدوء :

– لماذا ترتجفين يا (صفاء) ؟

لم أستطع إجابته ، ولم ينتظر هو هذا الجواب ، بل أبعد أنامله عن وجهى ، وابتسم وهو يقول :

– إننى لم أخطئ .. أنتِ كما تصوّرتك تماماً .. إنك جميلة حقّاً يا (صفاء) .

بحّ صوتى وأنا أسأله :

– حقّاً ؟!

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

– ليس هناك من شك .. إن جمالك لم يفاجئنى ، فهو كما رأيته تماماً .

أدهشنى استخدامه لفظ (الرؤية) ، وحِرْت فى التعليق على عبارته ، وكان كمن شعر بحيرتى ودهشتى ، فقد اكتسبت ابتسامته بعض الحزن ، وهو يقول :

– أنت لاتعلمين شيئاً عن عالم العميان يا (صفاء) .. إنه عالم عجيب ، لا أثر فيه للألوان ، أو الليل والنهار . لا أثر فيه لكل المسميات البصرية .. إنه عالم من الظلام ، الظلام التام .

كانت أول مرة يفصح فيها عن شىء يفكر فيه ؛ لذا فقد تركته يتحدث دون أن أقاطعه ، وهو يستطرد :

– حتى كلمة الظلام التام هذه لا معنى لها فى عالمى ، وإنما هذا المصطلح يصلح لعالم المبصرين ، حيث يوجد الضوء ، والظلام ، والظلام التام .. أما عالمى فهو لون واحد لا يتغير ..

صمت لحظة ، ولكننى لم أتفوّه بكلمة واحدة ، فعاد يقول :

– حتى وأنت تصفين نفسك ، قلتِ إنك تملكين شعراً أسود ، وعينين عسليتى اللون ، وأنا لا أعلم ما هو

اللون الأسود ، ولا كيف تبدو العيون العسلية اللون ؛ لذا فقد عجزت عن تصوّر ملامحك ، مستخدماً الصفات التى وصفت بها نفسك ، وكان علىّ أن أراك بوسيلتى أنا ، وعين الأعمى يا (صفاء) هى أذناه ، وأصابعه .

وعاد يبتسم فى حزن ، وهو يقول :

– وأنا الآن أستطيع أن أصفك يا (صفاء) ، فأنت مستديرة الوجه ، ناعمة الشعر ، لك عينان واسعتان ، ورموش طويلة ، وأنف دقيق ، وفم مستدير ، وشفتان ممتلئتان ..

كان وصفه بالغ الدقة حتى أنه أدهشنى ، فغمغمت :

– هذا صحيح .

ساد الصمت بيننا تماماً بعد عبارتى الأخيرة ، وشعرت بخجل لاحدود له ، وزادنى الصمت ارتباكاً ، فقلت فى تلعثم :

– هل نعود إلى الفلسفة ؟

اتسعت ابتسامته ، وتلاشى الحزن الكامن فيها ، وقال فى هدوء :

– كما يحلو لك .

عدنا إلى القراءة بعض الوقت، ثم وجدت نفسى، ودون مبرّر ، أسأله بغتة :

– ألا تذهب إلى الكلية أبداً يا (تامر) ؟

تجهّم وجهه لحظة ، ثم أجاب :

– نَعَمْ .

عدت أسأله فى اهتمام :

– لماذا ؟

عقد حاجبيه فى ضيق ، وقال :

– لست أحب الحديث فى هذا الأمر يا (صفاء) .

لم أحاول إجباره على الحديث ، ولكنى واثقة من أنه سيفعل إن آجلا أو عاجلا ، أما أنا فلن أتوقف عن محاولة إخراجه من عزلته ..

سأواصل المحاولة يا (فريدة) وأنا واثقة من النجاح ..

ادع لى يا (فريدة) ..

صديقتك

(صفاء)

* * *

٧ ـ خطوة قلب ..

الخميس : الثالث عشر من مارس .

عزيزتى (فريدة) ..

انتصرت فى هذه الجولة ..

نجحت فى إقناع (تامر) بالحديث عن نفسه ، وعن أحزانه ..

لست أدرى كيف حدث ذلك بهذه السرعة ، ولكننا كنا نستذكر دروسنا كالعادة ، عندما فوجئت به يقول :

– (صفاء) .. أما زلت تريدين معرفة سبب كراهيتى للكلية ؟

وضعت الكتاب ، وأنا أقول فى لهفة :

– بالطبع .

تنهّد فى عمق ، وقال :

– ألن يضايقك هذا ؟

قلت فى حرارة :

بلى يا (تامر) .

اعتدل فى مقعده ، وصمت لحظة وكأنه يستجمع أفكاره ، ثم بدأ يقول فى هدوء :

– لقد كنت طالباً متفوّقاً يا (صفاء) ، ولم يمنعنى عجزى يوماً من التقدّم والنجاح .

غمغمت أشجّعه :

– أعلم ذلك .

ابتسم ابتسامة شاحبة ، وواصل حديثه ، قائلا :

– كان ذلك قبل أن يترك أبى أمى بسببى .

غمغمت فى اعتراض متخاذل :

– لا أعتقد أن هذا هو السبب .

ابتسم فى إشفاق ، وكأنه يأسف لجهلى بطبيعة الأمور ، ثم أردف فى هدوء :

– لم أشعر بعاهتى وعجزى ، بقدر ما شعرت بهما فى ذلك اليوم ، حينما سمعت أبى يقول لأمى : إنه سيتزوج أخرى ، حتى ينجب أطفالاً أصحاء ..

صمت لحظة، بعد أن اختنق صوته فى نهاية جملته

الأخيرة ، وانتظر حتى تمالك جأشه ، وعاد يقول :

– ليلتها لم يكن أمامى إلاّ البكاء ، فتركت دموعى تنهمر ، دون أن أحاول كبحها كعادتى ، ورفضت مقابلة والدى، عندما أراد أن يودّعنى ، قبل أن يذهب إلى منزله الجديد ، وإلى زوجته الجديدة .

تحشرج صوته مرة أخرى ، وهو يغمغم :

– إننى لم أقابله منذ ذلك اليوم ، على الرغم من أنه يزور أمى بين وقت وآخر ، ويحضر لى الكثير من الهدايا و ....

بدا وكأنه قد عدل فجأة عن إتمام عبارته ، فقد توقف بغتة ، ثم قال :

– يومها تكشّفت لى طبيعة عجزى ، وعرفت كم كنت حملاً ثقيلاً على والدىَّ طيلة عمرى ، وهالنى أن أكشف ذلك ، فهو يعنى أن أقرب الناس إلىَّ لم يكن باستطاعته احتمال عجزى ، فما بالك بالغرباء ؟

صمت لحظة أخرى ، ثم أردف فى لهجة أكثر هدوءاً :

— يومها قرّرت ألاّ أكون عبئاً على أى مخلوق ، ما بقى لى من العمر .

قاطعته فى اهتمام :

— وهل تظن أنك ستحقق هذا بعدم ذهابك إلى الكلية ؟

ابتسم فى حزن ، وقال :

— إنك لم تسمعى حديثى إلى النهاية ، فذلك لم يكن سبب رفضى الذهاب إلى الكلية ، بل على العكس ، لقد زاد من رغبتى فى التفوّق والنجاح ، حتى لا أحتاج لأحد بعد ذلك .

سألته فى دهشة :

— ما سرّ انقطاعك عن الكلية إذن ؟

غمغم فى خفوت :

— إنها فتاة .

صدمتنى عبارته ، وتراجعت فى مقعدى ، وقد شحب وجهى فى شدة ..

لقد كنا نتصوّر جميعاً — والدتى ، ووالدته ، وأنا —

أن سبب عزوفه عن الكليـة هو موقف والده ، ولكن إحدانا لم تتوقع قطّ وجود صدمة عاطفية خلف ذلك ..

ولقد كانت صدمتى مضاعفة ، لأننى كنت أتوقع فى الحقيقة أننى أول فتاة فى حياته ..

ولقد لاحظ هو دهشتى ..

لست أدرى كيف يتأتّى له ذلك ، على الرغم من أننى لم أتفوّه بلفظ واحـد ، ولكن المهم أنه فعل ، وتنبّه إلى دهشتى ، فأسرع يقول :

— لم يكن حبّاً بالمعنى المفهوم ، ولم تكن علاقة فى الواقع ، وإنما لم يتعدّ ما بيننا إلاّ موقفاً واحداً ..

غمغمت فى شرود :

— حقّاً !!

قال فى حرارة :

— نعم .. هو موقف واحد .

واكتسب صوته بعض الحدّة ، وهو يقول :

— لقد كنت أقف فى فناء الكلية ، أحاول تبيُّن

اتجاهاتى ، من خلال اصوات المحيطين بى ، عندما سمعتها تتحدّث إلى جوارى .

تنهّد ، وأردف :

— كان صوتها بالغ الرقة ، وهى تسألنى عن مدرَّج المنطق ، وتخبرنى أنها طالبة بالسنة الأولى ، واسمها (عفاف) .. كان من الواضح أنها تجتذبنى للحديث معها ، وأصدُقُكِ القول .. لقد بعث هذا فى أعماق بعض الفخر ، واندفعت أصف لها المدرَّج ، ولكننى سمعتها تشهق فى قوة ، وسمعت صوتها المفزوع يهتف : « يا إلهى !! .. إنه أعمى » .. ثم سمعت صوت أقدامها تبتعد عنى فى سرعة ، وكأننى كلب أجرب ، أو ... أو ...

اختنق صوته مرة أخرى ، وبات من العسير عليه أن يتابع ، فربَّتُّ على كفه فى حنان ، وأنا أغمغم :

— التقط أنفاسك أولاً يا (تامر) .

أومأ برأسه فى إيجاب ، ومضت لحظات طوال ، قبل أن يعود إلى حديثه ، قائلا :

— فرَّت من أمامى وتركتنى مصدوماً ، مصعوقاً ، فلم أكن أتصوَّر أبداً أن كونى أعمى سيبعث فى نفسها كل هذا الفزع ، وارتبكت يومها ، وتخبَّطت حتى لم أعد أعرف طريقى ، وقرّرت يومها أن أحتفظ بعاهتى لنفسى ، وألا أطأ أرض الكلية مرة ثانية .

ساد بيننا صمت ثقيل ، بعد أن انتهى من قصته .. وعرفت لحظتها كم يحتاج إلى معاونتى ..

إلى حياتى ..

إلى حبى ..

قطع هو حبل الصمت ، مغمغماً فيما يشبه الاعتذار :

— لقد حذَّرت من أن تسبب لك قصتى ضيقاً .

لم أمنحه الجواب على الفور ..

كنت أفكر فى تلك الخطوة ، التى أقدم عليها قلبه ، حينما فتح أبوابه المغلقة أمامى ..

وشعرت بضرورة أن أخطو خطوة مقابلة ..

خطوة قلب محبّ ..

وقلت ، وأنا افتعل الهدوء افتعالا :

ـ ما رأيك أن نذهب معاً يا (تامر) ؟
ظهر الجزع فى قسماته ، وهو يهتف فى دهشة :
ـ إلى أين ؟
أجبته فى هدوء طبيعىّ هذه المرة :
ـ إلى الكلية بالطبع .
أشاح بوجهه عنى ، كما يفعل المبصرون ، وغمغم فى ضيق :
ـ سيضايقنى هذا ، وسيسبب لك حرجاً .
قلت فى إصرار :
ـ بل سأشعر بالفخر ، وأنا أسير إلى جوارك .
ارتفع حاجباه فى دهشة وحنان ، وواصلت أنا :
ـ ثم إنك ستذهب إليها حتماً ، إذا كنت قد قرّرت دخول الامتحان هذا العام حقّاً ، ومادمت ستفعل هذا ، إن عاجلا أو آجلا ، فلتكن البداية الآن .
أخذ يفكّر بعض الوقت فى صمت ، ثم ابتسم ، وتحسّست أنامله كفى ، وهو يقول :
ـ لا بأس يا (صفاء) .. لنذهب معاً .

وهكذا يا (فريدة) ربحت تلك الجولة ..
ربحتها تماماً ..
والله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده يعلم ، من سيربح فى النهاية ..
ولكننى سأواصل ..

صديقتك الصامدة
(صفاء)

* * *

٨ ـ المواجهة ..

السبت : الخامس عشر من مارس .

صديقتى العزيزة (فريدة) ..

وصلنى خطابك الثانى ، الذى تواصلين فيه هجومك على علاقتى بـ (تامر) ..

مازلت ترفضين إضفاء صفة الحب على هذه العلاقة ..

وفى خطابك هذا تطلقين عليها لفظ (انجذاب) ، وأنا أوافقك على هذا المصطلح ، فهناك (انجذاب) قوىّ بينى وبين (تامر) ، وهذا ما أطلق عليه أنا اسم (الحب) ..

لقد أدهشنى كثيراً إصرارك على اعتبارى مراهقة .

صحيح أنك لم تذكرى ذلك اللفظ صراحة فى خطابك ، ولكن الخطاب كله يؤكد هذا المعنى ، ويشير إليه فى كل عبارة ، وفى كل سطر ..

وأنا أرفض هذه الصفة ..

لست أرفضها لأنها نوع من السب أو المهانة ، فصحيح أن العامة ، حتى بعض المثقفين ، يعتبرون هذا اللفظ تعبيراً عن الاستهتار واللامبالاة والتهوّر ، ولكن هذا ليس صحيحاً ، فاللفظة صيغة وربما تعنى أن صاحبها يرهق من حوله ، وهذا صحيح ، ولكنه يرهقهم لأنهم لا يفهمونه ، ولا يحاولون فهمه ، ولا يتصوَّرون أن مبعث إرهاقه لهم هو إصرارهم الدائم على معاملته كطفل ، على الرغم من تجاوزه مرحلة الطفولة ، ودخوله مرحلة الشباب ، وربما لو أنهم حاولوا فهمه ، وربما لو تعاملوا معه بأسلوب مختلف ، لاختفت كلمة (المراهقة) من قاموس حياتنا تماماً ..

وعلى الرغم من رأيى هذا ، فأنا أرفض الصفة ..

أرفضها من وجهة نظر الآخرين ..

أرفضها لأن علاقتى بـ (تامر) ليست علاقة سطحية أو تافهة ..

ربما بدأت حقًّا بنوع من الانجذاب ، ولكنها لم

تكن لتستمر ، لو أن هذا هو رابطها الوحيد ، وحلقتها المنفردة ..

ثم إننى فقدت كل أثر للشك فى حقيقة حبى له ، بعد ما حدث أمس ..

وأنا أرفض أيضاً استخدامك لفظ (الشفقة) فى نهاية خطابك ، وأنت تشيرين إلى أن شفقتى على (تامر) وإحساسى بعجزه ، هما ما يربطاننى به الآن ..

وأحب أن أؤكد لك يا (فريدة) أننى لا أشعر بأى نوع من الشفقة نحو (تامر) ، بل أشعر بالفخر والإعجاب ..

لقد تأكدت من حبى له ، ومن إحساسى هذا ، وأنا أذهب معه إلى الكلية أمس ..

لقد كنا نسير معاً ، وهو يستند إلى ذراعى ، وابتسامته العذبة لا تفارق شفتيه ..

شعرت نحوه لحظتها بالإعجاب ، وامتلأت نفسى بالفخر ..

لقد نجح فى تجاوز أزمته يا (فريدة) ..

انطلق عناده ، وانطلقت صلابته فى الطريق الصحيح لأول مرة ..

لقد كانت أنظار الجميع تتجه إلينا فى مزيج من الدهشة والإشفاق ، ولكننى لم ألتفت إليها ..

كان يكفينى أننى أسير إلى جواره ..

إلى جوار الشاب الذى أحب ..

وهو أيضاً لم يتردّد ، ولم يرتجف ..

كان يسير فى ثقة واعتداد ، دون أن يرتبك أو يتلعثم ..

وكان كل شىء يسير على ما يرام ، حتى ظهر (فتحى) ..

و (فتحى) هذا واحد من أردإ الشباب ، الذين عرفتهم فى حياتى كلها ..

إنه من ذلك النوع ، الذى نشأ وظهر بعد موجة الانفتاح ..

ذلك النوع الذى ذاق الثراء فجأة ، واغترف المال بلا رابط أو حساب ..

وهو – كأمثاله – شديد التأنُّق ، ينفق الأموال فى غطرسة وتفاخر ، ويتعمَّد أن يشعر الجميع بتفوّقه عليهم ..

يرتدى دائماً أفخر الثياب ، وتفوح منه رائحة أنفس العطور ، ويأتى إلى الكلية فى سيارة فارهة ، تمتلىء دوماً بشباب على شاكلته ، يلتصقون به ليفيدوا من ثرائه ، ومن رغبته فى التباهى ..

و (فتحى) هذا شديد الغرور ، لا يتصوَّر أبداً أن يكون فى الإطار الثانى ، مهما كانت الظروف ..

ولقد أحنقه كثيراً أن يجذب جمال (تامر) الواضح أنظار الجميع ..

لقد نسى أنه على الرغم من جمال (تامر) النادر ، إلا أنه يفتقد أبسط شىء يتمتع به (فتحى) ..

يفتقد نعمة البصر ..

وانتابت (فتحى) واحدة من نزواته الشيطانية ، واندفع نحونا ، وأوقفنا على نحو يخلو من الذوق ، وهو يقول فى سخرية :

– مهلاً .. أنتما زميلان لنا .. أليس كذلك ؟

أجابه (تامر) فى لهجة مهذّبة :

– إننا نتشرّف بذلك .

ويبدو أن لهجة (تامر) هذه قد أثارت مزيداً من الحنق فى نفس (فتحى) ، الذى يفتقد أبسط قواعد اللياقة والذوق ، فقد قال فى قسوة ليس لها مايبرّرها :

– ولكننا لا نتلقّى محاضراتنا هنا بطريقة (برايل) للعميان .

شحب وجهى وأنا أتخيل وقع كلماته القاسية على نفس (تامر) ، والتفت إلى هذا الأخير فى جزع ، وشعرت بكراهية شديدة لـ (فتحى) ، حينما لمحت امتقاع وجه (تامر) الشديد ، ولكننى لم أنطق بحرف واحد ..

احتبست الكلمات فى حلقى ، الذى غص بالغضب والكراهية ، حتى أننى عجزت عن نطق حرف واحد ..

ولكن (تامر) تكلم ..

كان وجهه لا يزال ممتقعاً ، ولكن صوته بدا هادئاً ، وظلت لهجته مهذّبة ، وهو يقول :

– ربما ، ولكننى أستطيع سماع المحاضر جيداً ، وهذا كل ما أحتاج إليه .

ظهـر الغضب على وجـه (فتحى) ، وقال فى خشونة :

– هكذا ؟! .. ما رأيك أننا سنتلقّى محاضراتنا بعد ذلك عن طريق العرض السينمائى .

ابتسم (تامر) ، ولكن ابتسامته لم تمح ارتجاف شفتيه ، وهو يقول :

– سأنتظر حتى يحدث ذلك .

كنت قد استرددت جأشى ، مع موقف (تامر) الصلب ، فقلت لـ (فتحى) فى حنق :

– ماذا تريد يا (فتحى) ؟

ابتسم فى سخرية ، وقال :

– أريد رؤية هذا الأعمى ، وهو يشاهد حفل الربيع فى الكلية .

نطق كلمتى (الأعمى) و (يشاهد) فى تركيز ، وهو يضغط حروفهما فى قـوة ، وكأنه يتعمّد إهـانة (تامر) ، وفجـّر هـذا فى أعماق كل الكراهية ، التى أكنّها لمثل هذا النوع من الشبان ، الذين خلت قلوبهم من الرحمة ، فصرخت فى وجهه :

– أنت وقح وحقير .

انقلبت ملامحه لعبارتى ، وصاح فى غضب ، وهو يرفع يده ، وكأنه يهم بصَفْعِى :

– سأعلّمك كيف تخاطبيننى أيتها الـ ...

تراجعت فى خوف ،ولكن (تامر) قال فى صرامة أدهشت الجميع :

– تعلّم أنت أولاً كيف تخاطب آنسة مثلها أيها الحقير ، وحذار أن تمسها بسوء وإلاّ ...

كانت شجاعة نادرة من (تامر) ، أن يواجـه (فتحى) بمثل هذه الصرامة ، ولقد أذهلت شجاعتـه (فتحى) فتسمّرت يده فى الهواء ، والتفت إلى (تامر) كالمصعوق ، ومضت لحظـة خيّم فيها الصمت على

الجميع ، قبل أن يهتف (فتحى) فى غضب مخيف :

ـ وإلاَّ ماذا ؟ .. هل ستضربنى ؟

لم تهتزَّ شعرة واحدة فى جسد (تامر) ، أمام هذا التهديد الواضح ، وإنمـا قال فى مزيد من الصرامة والهدوء :

ـ ابتعد عنَّا يا (فتحى) .

وفجأة أقدم (فتحى) على أحقر عمل رأيته فى حياتى كلها ..

لقد لطم (تامر) ..

لطمه فى قوة وغضب ، وألقاه أرضاً ..

وصرخت أنا فى لوعة وجزع ..

وتضـاعدت صيحـات الغضـب والاستنكار من الجميع ، وقد هالهم ما أقدم عليه (فتحى) ، وخلبت شجاعة (تامر) لبَّهم ..

وتراجع (فتحى) فى خوف واضح ..

ظهر جُبنه أمام ذلك السخط الجماعى الهائل ..

وأسرع العشرات يعاونون (تامر) على النهوض ، وقد شحب وجهه ، وظهر الألم فى محيَّاه الجميل ..

وأسرعت أنا أنفض الغبار عن حلته الأنيقة ، وأنا أغمغم فى جزع وغضب :

ـ إنه شاب حقير .. حقير ..

وسمعته يغمغم فى ألم :

ـ أريد العودة إلى المنزل .

زادت عبارته من جزعى ، وقلت فى حنان ، محاولة محو أثر ما فعله (فتحى) :

ـ ما زالت أمامنا محاضرة هامة .

هتف فى حنق :

ـ أريد العـودة إلى المنزل ، أتعـودين معى ، أم أذهب وحدى ؟

حاول جمع كبير إقناعه بالعدول ، وهم يؤكدون له أن أحداً لن يمسه بسوء بعد ذلك ، ولكنه تمسك بعناده ، ولم يعد أمامى إلا مصاحبته فى طريق العودة ..

وتركنا الكلية ، وقد سادها صمت ثقيل ..

حتى (فتحى) لم يجرؤ على النطق ، ونحن نعبر الصفوف التى شاركتنا كراهيتنا له ..

وطوال طريق العودة إلى المنزل ، لم نتبادل كلمة واحدة مع بعضنا البعض ..

كنت أتأمل كل ذلك الحزن ، المرتسم على وجه (تامر) ، وأنا أبكى فى صمت ..

كنت أعلم أن مواجهته الأولى للمجتمع قد فشلت ..

فشلت بسبب شاب حقير مثل (فتحى) ..

وعندما وصلنا إلى منزل (تامر) ذهب إلى حجرته ، وأغلق بابها خلفه ، وكأنه يرفض أن أشاركه هذه اللحظات ....

وكانت أمه جزعة ملتاعة ..

وبكت فى حرارة وألم ، حينما شرحت لها ما حدث بكلمات موجزة ..

وفررت من كل هذا الحزن ..

هربت إلى شقتى ..

إلى حجرتى ..

وبكيت ..

بكيت بكاءً لم أبكِه من قبل ..

كانت دموعى تنهمر فى غزارة ، وأنا أشعر بها كاللهب تحرق وجهى ، وتلهب عينىَّ ..

والآن ، وأنا أخط لك هذا الخطاب ، تنبعث من حجرة (تامر) ألحان حزينة قاسية ..

أنغام يسيل لها دمع القلب ، قبل دمع العين ..

وأنا أشعر بفشل هائل يا (فريدة) ..

فشل يمزق أحشائى تمزيقاً ..

ولا أدرى ماذا أفعل به ؟ ..

ماذا أفعل يا (فريدة) ؟ ..

صديقتك المعذَّبة

(صفاء)

* * *

٩ ـ الصمود ..

الأحد : السادس عشر من مارس .

صديقتى الحبيبة (فريدة) ..

يبدو أن (تامر) أكثر صلابة وعناداً مما كنت أحسب ..

إنه ، على الرغم من عجزه ، أكثر قوة من كل المبصرين ..

لقد ترددت طويلاً قبل أن أذهب إليه ، فى موعدى المعتاد أمس ، خشية أن يواجهنى بكراهيتى له ، بعد أن تسببت ، بإصرارى على ذهابه إلى الكلية ، فى جرح كرامته على هذا النحو ، ولكننى ، وبعد تردد طويل ، ذهبت إليه ..

كنت أرتجف وأنا أعبر باب حجرته ، ولكننى لم أكد ألمح ابتسامته الهادئة ، حتى عاد الأمل يراود نفسى فى قوة ..

غمغمت فى ارتباك :

ـ كيف حالك يا (تامر) ؟

واختلج قلبى فى فرح ، حينما اتسعت ابتسامته ، وهو يجيب :

ـ فى خير حال يا (صفاء) .. كيف حالك أنت ؟

قلت فى لهفة وسعادة :

ـ هل نبدأ مذاكرة الدروس ؟

صمت لحظة ، ثم قال :

ـ إذا أردت ذلك ..

كانت أصابعى ترتجف من فرط الانفعال ، حتى أننى عجزت لحظات عن فتح الكتاب ، ولكننى لم أكد أبدأ القراءة ، حتى أوقفنى ، قائلا :

ـ (صفاء) ..

نطق اسمى فى صوت حنون ، جعل قلبى يرفرف بجناحين من السعادة ، فى سماء الحب ، فغمغمت :

ـ ماذا تريد يا (تامر) ؟

تردد لحظة ، ثم قال فى صوت خافت :

ـ بالنسبة لما حدث اليوم فى الكلية ؟ ..

قاطعته فى حنان :

ـ لست أحب أن أذكره يا (تامر) .

مال نحوى ، وقال :

ـ ولكننى أحب ذلك يا (صفاء)، فهو لايخجلنى .. بل على العكس ..

لم يتم عبارته ، وبدا كأنما يبحث عن لفظة مناسبة، فقلت أنا فى لهفة :

ـ بالفخر .

ابتسم وهو يقول :

ـ نعم .. هذا هو التعبير السليم يا (صفاء) .. لقد شعرت بالفخر .

ثم اعتدل ، وأردف فى هدوء :

ـ عند عودتنا من الكلية كنت أشعر بمزيج من الألم ، والحزن ، والخزى ، والعار ، وكانت نفسى تتمزّق ، على نحو لم أعهده فيها من قبل ، وفاض الحزن من أعماق ، فسكبته على أصابع (الأورج) ، الذى تجاوب معى بأنغام بالغة الأسى .

غمغمت ، وقد بدأت عينى تسكب الدموع :

ـ لقد سمعتها .

ابتسم ابتسامة خافتة ، وقال :

ـ ولقد كان لهذا عظيم الأثر فى نفسى ، فلم أكد أفرغ حزنى مع هذه الأنغام ، حتى هدأت نفسى ، وعدت أفكر فيما حدث بموضوعية .

وتألق وجهه وهو يردف فى عمق :

ـ وعندئذ شعرت بالفخر يا (صفاء) .

ارتجف جسدى مع عبارته العميقة ، وتهدّج صوته وهو يستطرد :

ـ شعرت بالفخر ؛ لأننى استطعت الذّود عنك يا (صفاء) .

نبض قلبى فى قوة، ورقص بين ضلوعى وأنا أسمعه يواصل فى حماس :

ـ صحيح أن هذا الحقير قد لطمنى ، وألقانى أرضاً ، ولكنه لم يكسب معركته .

تصاعدت نبرة الحماس فى صوته ، وهو يهتف :

ـ لقد خسر المعركة .. وأنا انتصرت .

ثم عاد صوته يخفت ، ويمتلىء بالحنان ، وهو يردف :

– لقد انتصرت ؛ لأنه لم يستطع مسك بسوء يا (صفاء) .

سالت دموعى غزيرة ، ومددت يدى فى بطء ، وأحطت بها كفه ، وشعرت بها ترتعد بين أصابعى ، وهو يقول فى حب :

– لقد فعلت هذا من أجلك يا (صفاء) .

غمغمت فى فرح لا يوصف :

– أعلم ذلك .. أعلم ذلك يا (تامر) .

كنا كعاشقين يسبحان فى نهر الحب ..

كنا كعصفورين يحلقان فى سماء الخيال ..

ولكنه أبعد كفه عن كفى بغتة ، ونهض من مقعده وهو يقول :

– ولكنى لا أحب الذهاب إلى الكلية .

هتفت فى اعتراض :

– ولكن ..

قاطعنى فى هدوء :

– أرجوك يا (صفاء) .. أنت لا تتصورين ما يسببه لى هذا من إزعاج ، سأستذكر دروسى هنا ، وأعدك أن أنجح بتفوق هذا العام .

قلت فى حنان :

– ولكن هذا يعنى أن (فتحى) هو الذى انتصر .

– ماذا تعنين ؟

– أعنى أنه ما دام قد نجح فى منعك من الذهاب إلى الكلية ، فقد حقق نصراً .

– الذهاب إلى الكلية ليس نصراً .

– لقد أصبح كذلك .

– أنا أرفض خوض هذه المعركة إذن ، ولينتصر هو .

– إنها ليست معركة .

– لا مجال للنصر ، أو الهزيمة إذن .

– أنت لم تفهمنى .. إذا كانت هناك معركة ، فهى معركتك مع نفسك .

– إن نفسى تطيب للوحدة .

– إنك لن تبق وحيداً إلى الأبد .

— أمثالى تلازمهم الوحدة حتى الموت .

— ولكنك ستتخلى عن وحدتك حتماً .

— متى ؟

— عندما ... عندما تتزوج .

قلت عبارتى الأخيرة ، ودماء الخجل تملأ وجهى ، وعقد هو حاجبيه على نحو عجيب ، وساد الصمت بيننا طويلا ، قبل أن يغمغم فى تردّد :

— هل تتصوّرين أنه هناك من تقبل الزواج من مثلى؟

— وماذا يعيبك ؟

— إننى أعمى .

— الزواج لا يحتاج إلى الإبصار .

— ولكن الحياة تحتاج إليه .

— أنت تمتلك بصيرة تفوق أشد المبصرين حدّة .

— البصيرة لا يمكنها رؤية العالم .

— ومن يحتاج إلى رؤيته ؟.. إنه عالم بغيض .

— الزواج يحتاج إلى رجل ناجح، والنجاح يستلزم إبصار المرء لطريقه .

— من قال هذا ؟.. لقد كان (طه حسين) كفيفاً، ولكنه وصل إلى ذروة النجاح .

— إنه حالة خاصة .

— و (سيد مكاوى) ؟

— حالة ثانية خاصة .

— لماذا لا تكون هناك إذن حالة ثالثة ، ورابعة ، وخامسة ؟

ازداد انعقاد حاجبيه ، وصمت وكأنه يفكر فى عمق، ثم هزّ رأسه فى قوة ، وكأنما ينفض عنها فكرة ما وعاد يقول فى إصرار :

— إننى أكره أن تشعرنى زوجتى بالشفقة .

— لو أنها تحبك ، فلن تشعر بذلك .

— ستكون حياتها معى شاقة قاسية .

— لو أنك تحبها فلن يتطرّق إليها هذا الإحساس قط..

عاد إلى صمته وحيرته ..

كنت أرجو أن يفهم من حديثى ، ما لا أجرؤ على التصريح به جهراً ..

وكنت واثقة من أنه فهم ..

وطال صمته ..

طال صمتنا معاً ..

وأخيراً سمعته يغمغم فى حنان :

– (صفاء) .

خفق قلبي وأنا أسأله فى لهفة :

– نعم يا (تامر) ..

تردّد طويلاً ، حتى كاد قلبي يتوقف ، ثم عاد يعقد حاجبيه ، ويغمغم فى شرود :

ألن نكمل قراءتنا ؟

إنه لم يستطع نطق الكلمة ، التى أنتظرها من بين شفتيه بلهفة وأمل ..

لم يستطع يا (فريدة) ..

ولكنى واثقة من أنه سيفعل يوماً ..

وسأنتظر ..

صديقتك

(صفاء)

* * *

١٠ – المعركة ..

الإثنين : السابع عشر من مارس .

عزيزتى (فريدة) ..

تطوّرت الأمور اليوم تطوّراً عجيباً مفاجئاً ..

لقد رفض (تامر) بإصرار مصاحبتى إلى الكلية ، فذهبت إليها وحدى ، دون أن أفقد الأمل فى إقناعه بالعدول عن إصراره يوماً ..

وكنت أتوقع أن يتحرّش بى (فتحى) ، أو يحاول مضايقتى على أى نحو ، ولكنه لم يفعل ..

إنه لم يكن هناك على الإطلاق ..

وقضيت يوماً عاديًّا فى الكلية ..

وحينما عدت إلى منزلى ، كانت تنتظرنى مفاجأة عجيبة ..

كانت سيارة (فتحى) الفارهة ، الفاخرة ، تتألق أمام منزلنا ..

ولقد أدهشنى هذا كثيراً يا (فريدة) ، وأخذت

أتساءل عن السر فى وجود سيارة (فتحى) أمام منزلنا ، وأنا أصعد فى درجات السلم ، حتى وصلت إلى شقتى ، وهناك تضاعفت المفاجأة ، وتعاظمت الدهشة ..

لم تكن سيارة (فتحى) وحدها أمام منزلنا ، بل كان هو ووالده داخل شقتنا ..

واستقبلتنى والدتى فى فرح عجيب ، واصطحبتنى إلى حجرتى فى لهفة ، وهناك عرفت سر زيارة (فتحى) ووالده ..

ويا له من سرّ !!

لقد أراد (فتحى) أن يربح المعركة بوسيلته ..

وتقدّم لخطبتى ..

كانت مفاجأة مذهلة لى ، ولكنها كانت تشفّ عن أسلوب (فتحى) المعتاد .

لقد عجز عن كسب معركته بالقوة ، فقرّر أن يربحها بأمواله الطائلة ..

أراد أن ينتصر على (تامر) بالزواج من الفتاة التى ترتبط به ويرتبط بها ..

ورفضت أن أتزيَّن كما طلبت أمى ..

رفضت أن أمنح (فتحى) أية بادرة نصر فى المعركة.

وذهبت إلى حجرة الجلوس ، حيث يجلس هو ووالده ، المقاول الكبير ، وأمى وأبى وشقيقى (وليد)..

كان يجلس بنفس طريقته المتغطرسة ، التى يجلس بها فى الكلية ، والتمعت عيناه فى ظفر ، حينما رآنى أدخل الحجرة ، ونهض والده يصافحنى فى حرارة ، ويقول :

– مرحباً بعروسنا الجميلة .

صافحته فى برود ، وانتقلت إلى (فتحى) ، الذى صافحنى فى سماجة ، وضغط يدى فى راحته ، وهو يتحرّك جانباً ، ليفسح لى مكاناً مجاوراً له على الأريكة ، ولكننى نزعت يدى من كفه فى هدوء ، وتجاهلت حركته الواضحة ، وذهبت إلى الركن الثانى من الحجرة وجلست إلى جوار والدى ، ومضت فترة من الصمت ، قبل أن يقول والد (فتحى) فى ثقة ، وكأنه يواصل حديثاً سبق قدومى :

– لن تكون هناك مشاكل ، ولن نختلف على أية

تفاصيل ، فسأتى بشبكة ثمينة ، وسندفع مهراً يشرفكم ويشرفنا ، و (فتحى) لديه شقة كبيرة فى أرقى أحياء القاهرة ، و ...

قاطعه والدى ، والفرح يبدو واضحاً فى كلماته :

– دعنا لا نناقش هذا يا (عبد الغفار) بك ، إننا نشترى رجالا .

أحنقتنى عبارة والدى أيما حنق ..

يشترى رجالا ؟!.. أين هم هؤلاء الرجال ؟

أيظن (فتحى) رجلا ؟..

إنه أبعد ما يكون عن الرجولة ..

إنه أحقر من أن يوصف بهذه الصفة ..

ووجدت نفسى أندفع لأسأل والد (فتحى) فجأة :

– وفيم سيعمل (فتحى) بعد تخرّجه ؟

ارتفع حاجبا والدتى فى دهشة وجزع ، وعقد والدى حاجبيه فى غضب ، وكأنه يستنكر أن أوجه هذا السؤال ، فى حين ابتسم (فتحى) فى سخرية ، وضحك والده وهو يقول :

– إن وظيفة (فتحى) محفوظة ، من قبل حتى أن يلتحق بكلية الآداب .

وعلى الرغم من دهشة والدتى وجزعها ، وغضب والدى ، عدت أسأل :

– وما طبيعة هذه الوظيفة ؟

ازدادت السخرية فى ابتسامة (فتحى) ، وأجاب والده فى هدوء وثقة :

– إن لدىّ أكبر شركة مقاولات فى مصر ، وسأترك له اختيار الوظيفة التى تروق له ، مقابل ألف جنيه شهريًّا .

أسرع والدى يقول ، وكأنه يعتذر عن سؤالى :

– إننا نعلم ذلك ، ونثق به يا (عبد الغفار) بك .

ابتسم والد (فتحى) فى ثقة ، وأدار عينين ظافرتين إلىّ ، وهو يسأل فى هدوء :

– والآن .. ما رأى عروسنا الجميلة ؟

وأنا واثقة يا (فريدة) من أنهم كانوا يتوقعون منى أن أطرق برأسى فى حياء ، ويحمرّ وجهى خجلا ، فقد

اتسعت ابتسامة (فتحى) المغرورة ، وأطرق والدى برأسه وهو يبتسم فى ثقة ، وتراقصت ابتسامة فرحة على شفتى أمى ..

أما أنا ، فقد شعرت برغبة قوية فى تحطيم ابتسامة (فتحى) المقيتة ، وفى كسر غـروره وغطرسته ، فاعتدلت فى مقعدى ، وقلت فى هدوء وبرود :

ـ إننى أرفض .

وكان لإجابتى وقع الصاعقة على الجميع ..

اتسعت عينا أمى فى ذهول ، وأدار والدى رأسه إلىّ فى مزيج من الدهشة والغضب ، وتلاشت ابتسامة والد (فتحى) ، وحلت محلها الدهشة والاستنكار ، أما (فتحى) نفسه فقد تجمّدت ابتسامته الواثقة على شفتيه ، ثم تحطمت بغتة ، وتفجّر الغضب فى وجهه ، وهبّ واقفاً بغتة كمن صعقه تيار كهربى قوى ، وهتف والدى فى غضب :

ـ هل جننت يا (صفاء) ؟

صحت فى حنق :

ـ لماذا ؟.. لأننى رفضت (فتحى) ؟.. أليس من حقى القبول أو الرفض ؟ أو ..

قاطعنى (فتحى) فى حدة :

ـ أو الحب .

استدار إليه الجميع فى دهشة ، ولكنه كان قد ألقى أناقته جانباً ، وعاد إلى ثوبه القديم ..

ثوب ما قبل الانفتاح ..

كان الغضب قد أظهره على حقيقته المقيتة ، وهو يقول فى شراسة :

ـ سلوها لِمَ ترفضنى ؟.. دعوها تخبركم عن حبيبها الأعمى ، الذى تتأبط ذراعه فى الكلية ، على مرأى من الجميع ، دون خجل أو حياء .

شحب وجه أمى ، وارتجفت شفتا أبى فى ذهول ، وهتف (وليد) شقيق الأصغر فى غضب :

ـ حذار .. إنك تهين شقيقتى .

صاح (فتحى) فى غضب :

ـ بل هى أهانتنى .. إننى لا أقبل أن ترفضنى فتاة مثلها .. أنا الذى أرفضها لا هى .

هبَّ والدى من مقعده ، وقال فى صرامة :

– كفى يا سيد (فتحى) .. لقد قلت ما يكفى .

نهض والد (فتحى) فى حِدَّة ، وجذب ولده إليه وهو يقول فى غضب :

– هيَّا يا (فتحى) .. لقد أخطأنا المنزل .

انصرفا غاضِبَيْن ، وانتقل غضبهما إلى أبى ، وهو يصرخ فى وجهى :

– كيف تصرَّفت على هذا النحو الأحمق ؟

أجبته فى دهشة :

– أىَّ نحو يا أبى ؟.. لقد استخدمت حقِّى فى اختيار شريك حياتى .

صاح فى غضب :

– ولكنك استخدمته فى حماقة وسخافة .

تدخلت أمى قائلة :

– مهلاً يا (سالم) .. هو الذى أهانها لا هى .

لوَّح والدى بكفيه فى عصبية ، وهتف :

– وماذا عن ذلك الحبيب المجهول ؟

قلت فى ارتباك :

– إنه يقصد جارنا (تامر) ، فقد ذهبنا إلى الكلية معاً ، وكان لابدَّ لى من تأبط ذراعه ؛ لأنه ..

عجزت عن نطق الكلمة ، فهتف والدى :

– وماذا عن سمعتك ؟.. هل تقبلين أن يقول الناس إنك غارقة فى حبه ؟

ثار العناد فى أعماق ، فهتفت :

– وماذا فى ذلك ؟

تفجَّرت الدهشة فى وجه والدى ، وصاح :

– ولكنه أعمى .

– إنه شاب رائع ، وأى فتاة عاقلة فى هذا العالم تتمناه زوجاً .

– لو أن عجزه يعود إلى حادث ما ، لكان هذا يبدو معقولاً ، لوجود الأمل فى شفائه ، أما بالنسبة لحالته ، فهو لن يُشفَى أبداً .

– ومن طلب شفاءه ؟

شحب وجه والدى ، وامتلأ وجه أمى بالجزع ، وهى تهتف :

– إذن فأنت تحبينه حقًّا يا (صفاء) .

شحب وجهى أنا هذه المرة ، وفكّرت فى نفى ذلك ، خشية عواقب تصريحى به ، ولكن شيئاً ما فى أعماق رفض ذلك ..

شعرت فى تلك اللحظة أن الحب كالطفل ، لا يمكن أن تنكره أمه أبداً ..

كيف أنكر حبّى ؟..

كيف أتخلّى عنه ؟..

هل أرضى لحبّى أن ينشأ سفاحاً ؟..

لم أجرؤ على النفى ، ولم أستطع التصريح ..

لذت بالصمت ، وأطرقت بوجهى فى ألم وحياء ..

وكان صمتى اعترافاً واضحاً ..

كان أبلغ من أى تصريح ..

وصاح والدى فى حنق :

– إذن فأنت تحبين شابًّا أعمى .

غمغم (وليد) فى اعتراض :

– إنه يعزف ألحاناً رائعة .

التفت إليه والدى ، وهتف فى دهشة واستنكار :

– ألحان ؟!

عدت أقول فى ضراعة :

– إنه شاب رائع يا أبى .

التفت إلىّ ، صائحاً فى حِدّة :

– كفى .

كانت هذه أول مرة أرى أبى فيها ، وكل هذه القسوة ترتسم فى وجهه ؛ لذا فقد تراجعت فى خوف ، فى حين استطرد هو فى غضب :

– إنك لن تذهبى إلى شقة (تامر) مرة ثانية .. فليفشل فى حياته ، أو يخسر عامه الدراسى ، ولكنك لن تذهبى إليه بعد الآن .. أبداً ..

وهكذا خسرت معركتى يا (فريدة) ..

وخسرت (تامر) .. إلى الأبد ..

البائسة

(صفاء)

* * *

١١ ـ الهزيمة ..

الإثنين : السابع عشر من مارس .

صديقتى الوحيدة (فريدة) ..

هذه أول مرة فى حياتى أكتب لك فيها خطابين فى يوم واحد ، ولكن ما حدث بعد إرسالى خطابى الأول جعلنى أحتاج إلى الكتابة إليك فى شدة ..

لقد ذهبت إلى حجرتى ، بعد أن أصدر والدى قراره الحازم ، بألا أذهب إلى شقة (تامر) أبداً ، وكان هذا يعنى أننى لن ألتقىَ به مرة أخرى ..

وجلست أكتب خطابى الأول لك وأنا أبكى ، وأعطيته لـ (وليد) ، وطلبت منه أن يضعه فى صندوق البريد على الفور ، ورأيت الحزن فى وجه (وليد) ، وهو يلمح دموعى الغزيرة ، التى بللت وجهى ، وعدت إلى حجرتى ..

عدت لأبكى بدموع لا تنضب ..

لست أدرى كم مرّ من الوقت ، وأنا غارقة فى

بحر الدموع ، ولكننى شعرت بكف (وليد) الصغير ، وهو يربّت على كتفى فى حنان ، فسألته وأنا أحاول تجفيف دموعى

ـ هل أرسلت الخطاب ؟

أومأ بوجهه الحزين المشفق إيجاباً ، وغمغم :

ـ لقد أخبرته .

انتفض جسدى فى قوة ، وأنا أسأله فى دهشة :

ـ أخبرت من ؟

أجابنى فى صرامة ، لا تتناسب وسنه :

ـ أخبرت (تامر) .. أخبرته بكل ما حدث .

أمسكت كتفيه فى قوة ، وأنا أهتف :

ـ لماذا فعلت ذلك ؟.. لماذا ؟

أطرق بوجهه ، وشاركنى دموعى وهو يقول :

ـ كان لا بدّ أن يعلم .

تملكنى جزع رهيب ، وأنا أحاول تخيّل وقع ذلك على (تامر) ..

هل ستحتمل مشاعره الرقيقة ذلك ؟..

هل ينهار ، ويفقد كل ثقته فى الحب والحياة ؟..

كنت أرتعد فى لوعة وجزع ، حينما سمعت صوت أمى تقول فى حنان :

– اذهب إلى حجرتك يا (وليد) .

استلقيت فى فراشى ، ودفنت وجهى المبتل بدموعى فى وسادتى ، وكأننى أرفض مواجهة أمى ، فى حين غمغم (وليد) فى عناد :

– أريد أن أبقى إلى جوار (صفاء) .

سمعت والدتى تقول فى حنان :

– عد إليها بعد أن أغادرها أنا يا (وليد) ، فسأتبادل معها بعض الحديث .

سمعته يغمغم بكلمات معترضة ، ثم سمعت وقع أقدامه وهو ينصرف ، وصوت باب حجرتى ، الذى أغلقه خلفه ، وشعرت بكف أمى تربّتُ على ظهرى فى حنان ، وهى تقول فى هدوء :

– إن العالم لم ينته بعد يا بنيتى .

غمغمت دون أن أدير وجهى إليها :

– لقد انتهى بالنسبة لى يا أمى .

صمتت لحظة ، ثم سألتنى فى حنان دافق :

أتحبّينه إلى هذا الحدّ يا (صفاء) ؟

أدرت وجهى إليها ، وقلت وأنا أبكى :

– نعم يا أماه .

سألتنى فى اهتمام :

– وماذا عنه ؟

أجبتها فى ألم :

– إنه يشاركنى مشاعرى يا أماه ، ولكن ..

سألتنى فى لهفة :

– ولكن ماذا ؟

– ولكنه يخشى التصريح بذلك .

– كيف تؤكدين أنه يشاركك مشاعرك إذن ، ما دام لم يصرّح بها ؟

– أنا واثقة من ذلك .

– فلنفرض أن ثقتك صحيحة ، هل تعلمين صعوبة الزواج من رجل أعمى ؟

– لن تكون هناك صعوبة يا أماه .
– لن يمكنه أن يرى محاسنك .
– ولكنه سيشعر بها .
– ستفقدين متعة التزين من أجله .
– بل ستكون المتعة مُضاعفة ، فمن دواعى الفخر للمرأة أن يشعر زوجها بزينتها ، حتى وهو لا يراها .
– لن يمكنك احتمال هذا طويلا .
– ليس من حق أحد أن يقرر ذلك .
تنهّدت أمى فى استسلام ، وقالت فى هدوء :
– دعينا ننتظر إذن حتى يصارحك ، ثم نناقش هذه الأمور .
قلت فى أسًى :
– لقد أعلن والدى رفضه له منذ الآن .
عادت تربِّتُ على كتفى ، وتقول فى حنان :
– والدك لا يطلب سوى سعادتك يا (صفاء) وهو يظن أن زواجك من (تامر) لن يحقق لك هذه السعادة ، ولا تنسىْ أنك ابنة وحيدة ، وليس من السهل أن ..

بترت عبارتها بغتة ، حينما انبعث لحن حزين رائع من شقة (تامر) ..
لحن يبدو وكأنه يحمل أحزان الدنيا كلها فى إطار واحد متماوج ..
وتسلل اللحن الحزين إلى أعماقى ، ومسّ شغاف قلبى المحب الولهان ، ورأيت الدموع تملأ عينى أمى ، وتسيل منهما على وجنتيها ، وسمعتها تغمغم فى حنان :
– يا لكما من عاشِقَيْن !!
ولا ريب أنها قد أكملت عبارتها يا (فريدة) ، ولكننى لم أسمع حرفاً واحداً منها ، فقد كنت أسبح بكيانى كله مع ذلك اللحن الحزين ، الذى تبعثه أصابع (تامر) الذهبية ..
لحن اسمه (الهزيمة) ..

صديقتك المهزومة
(صفاء)

* * *

١٢ ـ المفاجأة ..

الثلاثاء : الثامن عشر من مارس .

صديقتى الحبيبة (فريدة) ..

أنا واثقة من أن خطابى هذا سيثير دهشتك ..

سيغير كل الوقائع فى ذهنك دفعة واحدة ..

تماماً كما فعل معى ..

ولكى أنقل لك مشاعرى بالضبط ، سأبدأ القصة من البداية ..

والبداية يا صديقتى العزيزة كانت هذا الصباح ، حينما ذهبت إلى الكلية ..

قطعت طريقى من المنزل إلى الكلية صامتة، شاردة، حزينة ..

كنت أفكّر فى (تامر)، الذى فقدته إلى الأبد ، بسبب قرار والدى المتعنّت ..

ولم أفق من شرودى إلا داخل الكلية ..

أفقت منه على صوت (فتحى) المفعم بالغيظ والسخرية ، وهو يقول :

ـ مرحباً بأميرة المعوّقين .. أين حارسك الأعمى يا ترى .

حدّجْتُه بنظرة قاسية باردة ..

نظرة حملت كل ما يعتمل فى نفسى تجاهه من كراهية واحتقار ..

نظرة كافية لتحطيم كرامته، لو أنه يمتلك كرامة .. وتجاوزته مبتعدة، ولكنه أمسك ذراعى فى حدة، وقال فى غلظة :

ـ إلى أين يا أميرتى ؟ .. إننى لم أنته بعد ..

جذبت ذراعى منه فى حِدَّة ، وصِحْت فى غضب :

ـ ماذا تريد منى يا (فتحى) ؟

قال فى شراسة :

ـ أريد اعتذاراً عن وقاحتك أمس .

هتفت فى حدة :

ـ أيّنا يدين للآخر بالاعتذار ؟ .. لقد أهنتنى فى منزلى ..

شعرت أن غضبى قد أسعده، وهو يقول فى شماتة :

– ولـكننى حـذرت والدك من عبثك مع هـذا الأعمى ، ولابد أنه يدين لى بالفضل .

تضاعف غضبى ، وأنا أقول :

– حذار أن تتفوّه بكلمة زائدة يا (فتحى) .

أطلق ضحكة عصبية ساخرة ، وقال :

– وماذا ستصنعين لو أننى فعلت ؟ ..

قلت فى حِدَّة وغضب :

– سألقنك درساً لن تنساه أبداً .

ابتسم فى سخرية مقيتة ، وقال :

– هكذا ؟!

ثم عاد يقبض بكفه على ذراعى فى قوة ، ويقول فى حِدَّة :

– ألن تكفّى عن لعب دور الأم هـذا ؟ .. إنه لا يصلح لى أيتها الجميلة .. ربما كان يصلح لصديقك الأعمى ، ولكن ليس لى ، فأنا لا أميل للعب دور الطفل العابث .. أتفهميننى ؟

وهنا حدثت المفاجأة ..

مفاجأة مذهلة ، كان لها وقعها القوىّ علىّ ، وعلى (فتحى) فى آن معاً ..

قبل أن تهوى صفعته الغاضبة على وجهى ، سمعت صوت (تامر) ..

نعم يا (فريدة) .. صوت (تامر) ..

كان صـوته صارماً ، قويًّـا ، يمتلىء بالرجـولة والحزم ، وهو يقول :

– كفّ يدك عنها أيها القذر .

هتفت باسمه من أعماق قلبى ، وأنا ألتفت إليه غير مصدّقة ، واتسعت عينا (فتحى) فى ذهول ، وتراخت أصابعه حول ذراعى ، وهو يتطلع إليه ..

كان (تامر) يقف مستنداً إلى ذراع أحد زملائنا فى الكلية ، وقد تألق وجهه الجميل بصرامة شديدة ، وبدا شديد التأنق فى حلته الأنيقة ، وهو يكرر فى حزم :

– هل سمعتنى يا (فتحى) ؟ .. ابتعد عنها .

تَرَكَ (فتحى) ذراعى فى حِدّة ، وقال فى عصبية :

لست أدرى كيف أقدمت على ما فعلته فى هذه اللحظة يا (فريدة) ..

لم أكن أنا صاحبة القرار ، بل كان ذلك الغضب الهائل فى نفسى هو الذى يعمل ..

لقد جمعت غضبي ، وكراهيتى ، واحتقارى فى كفى ، وهويت على وجهه بصفعة قوية ، ارتفع رنينها فى فناء الكلية كله ..

واحتقن وجه (فتحى) ، وهو يحدّق فى وجهى بذهول ، وشحب وجهى أنا ، وأنا أتصوَّر رد فعله على صفعتى ..

وسرعان ما تحوّلت دهشته إلى غضب هائل ، وشعرت بأصابعه تنغرز فى ذراعى بصورة مؤلمة ، وسمعته يصرخ فى جنون :

— أيتها الحقيرة .. كيف تجرئين ؟

رفعت كفى بصورة غريزية ، وكأننى أتقى كفه التى ارتفعت عالياً ، وهو يستعد لرد الصفعة على وجهى ..

وارتجف جسدى فى خوف ورهبة ..

— ألم تتعلّم شيئاً من الدرس الذى لقنتك إيَّاهُ سابقاً ؟

أجابه (تامر) فى هدوء وحزم :

— كان الأجدر أن تتعلم أنت الكثير من الدرس نفسه .

احتقن وجه (فتحى) فى غضب ، وهتف :

— سأصفعها إذن ، ولنر ماذا يمكنك أن تفعل ؟

ثم ضرب كفيه بعضهما ببعض ، وكأنه يوحى بصفعه لى ، ولكن (تامر) ابتسم فى هدوء ، وقال :

— هل تظن أنك ستخدعنى بهذا يا (فتحى) ؟ .. لقد صفعت كفك ، ولم تصفع (صفاء) ، والفارق كبير بين الاثنين ، فالأولى تستحق الصفع ، أما الثانية فلا .

صاح (فتحى) فى جنون :

— هل تتظاهر بالشجاعة ؟

كان (تامر) رائعاً بهدوئه ، وثقته ، وهو يقول :

— كلاَّ .. فأنا لا أفتقدها كى أحاول التظاهر بها .. فالجبان وحده من يواجه العميان والفتيات فحسب .

ارتجف (فتحى) لحظة فى غضب ، ثم تحرّك نحو (تامر) ، ولوَّح بقبضته فى وجهه ، وهو يقـول فى شراسة :

– يبدو أنك تحتاج إلى درس جديد .

لم يهتز هدوء (تامر) لحظة ، وهو يقول :

– بل أنت الذى يحتاج إليه أيها الحقير .

ارتفعت قبضة (فتحى) فى غضب جنونى ، ولكنها تسمَّرت فى مكانها ، حينما واجهته النظرات الساخطة الغاضبة فى عيون الجميع ، ورأى بعضهم يتقدم نحوه فى تحفز واضح ، وعاد جُبنه يحتل مركز الصدارة وسط مشاعره العديدة ، فخفض قبضته ، وهمهم بكلمات ساخطة ، وأسرع يبتعد عن الجميع ، وأسرعت أنا أتأبط ذراع (تامر) فى فخر وسعادة ، وأنا أقول :

– لقد رحل .

ابتسم ، وربَّت على كفى فى حنان ، وهو يقول :

– أعرف ذلك يا (صفاء) .. لقد سمعت وقـع أقدامه الغاضبة .

تعلقت بذراعه فى اعتزاز ، وسرت إلى جـواره أمام عيون الجميع ، التى لم تحمل إلا الاحترام والتقدير ، وهتفت فى حب وسعادة :

– كنت أتصوَّر أنك لن تأتى أبداً .

ابتسم فى هدوء ، وقال :

– إنك لم تتركى لى الخيار يا (صفاء) .

هتفت فى دهشة :

– أنا ؟!

أومأ برأسه إيجاباً ، وقال :

– لقد أخبرنى شقيقك (وليد) أمس ما كان من زيارة (فتحى) ، وطلبـه يدك ، وقصَّ علىَّ كيف رفضته ، وكيف أن والدك قرر ألا تأتى إلى شقتنا أبداً .

تضرَّج وجهى بحمرة الخجل ، وأنا أتساءل عما إذا كان (وليد) قد أخبره بالحديث كله ، بما فى ذلك اعترافى بحبى له ، ولكنه لم ينتبه إلى خجلى ، وتابع قائلا :

– ولم يكن من الممكن أن تعصىَ قرار والدك ، كما كان من المستحيل ألا نتقابل أبداً ، ولما كان من

المستحيل أن نلتقى فى منزلى ، لم يعد أمامى إلا مقابلتك هنا .. فى الكلية ..

لا يمكنك تخيّل وقع كلماته هذه على نفسى يا (فريدة) ..

لقد تخلى عن عزلته ، وتوتره ، وكراهيته للكلية من أجلى ..

من أجلى أنا يا (فريدة) ..

هل لديك تفسير آخر ، غير الحب ، لهذا التصرف ؟ ..

الحب وحده يمكنه أن يصنع هذا ..

الحب وحده يأتى بالمعجزات ، فى زمن لا مجال فيه للمعجزة ..

الحب هو الذى انتصر فى هذه الخطوة يا (فريدة) .. وسينتصر إلى النهاية ..

صديقتك المحبة

(صفاء)

* * *

١٣ ــ الفرصة ..

الأربعاء : التاسع عشر من مارس .

صديقتى الحبيبة (فريدة) ..

تلقيت اليوم خطابك الثالث ، الذى يختلف تماماً عن خطابيك السابقين ..

لقد اعترفتِ أخيراً بطبيعة العلاقة بينى وبين (تامر) .

أخيراً استخدمتِ لفظ (الحب) ، وأنت تصفين هذه العلاقة ..

أخيراً نجحتُ فى إقناعك ..

لقد أسعدنى خطابك الأخير هذا كثيراً يا (فريدة).

أنت بالذات كان يهمنى أن تعترفى بحبى لـ (تامر) .

لقد بدّل هذا الاعتراف مشاعرى كثيراً ..

لقد منحنى شعوراً بشرعية هذا الحب ..

بصحته ..

بقوّته ..

اعترافك جعلنى أشعر وكأن العالم كله قد اعترف بهذا الحب ..

لقد كنت أنت أشد المناهضين له ، ثم تحولت فجأة إلى زعيمة للمؤيدين ..

ومن الواضح فى خطابك أن صلابة (تامر) ، وعناده ، كان لهما فى نفسك أثر عظيم .

تماماً كما فعلا بى ..

ولكن (تامر) نفسه يرفض الاعتراف بهذا الحب..

يرفض التصريح به .. أو أنه يخشاه ..

أشعر فى بعض الأحيان أنه يوشك على التصريح بحبه ، ولكنه لا يلبث أن يتراجع ، وكأنه يخشى أن يصدمه رفضى له ..

إنه لا يتصوّر كم أتلهف لسماع كلمة الحب من بين شفتيه ..

كم أشتاق لها ..

كم أنتظرها ..

ولكننى واثقة من أنه سينطقها يوماً ..

وسيكون ذلك يوم يستعيد (تامر) كل ثقته ، فى مواجهة الآخرين ..

واليوم لاحت فرصة مناسبة لذلك ..

كانت الكلية كلها تستعد لحفل الربيع ، الذى علمت أنه يقام سنويًّا فى الحادى والعشرين من مارس ، يوم بدء فصل الربيع ، الذى تتفتح فيه الزهور ، ويتألّق فيه الحب ..

وقد كنا نسير فى الكلية - (تامر) وأنا - حينما اقتربت منا إحدى منظمات الحفل ، واستوقفتنا ، لتسأل فى اهتمام :

- هل ستبتاعان تذاكر لحفل الربيع ؟

ابتسم (تامر) فى خجل ، وقال :

- كلاً .. شكراً .. إننى لا أميل للحفلات .

هتفت الفتاة فى حماس :

- ستغير رأيك حينما تحضر حفل الربيع .. إنه يضم كل الموهوبين فى الكلية ، وكل منهم يبذل أقصى جهده لإضفاء المرح والسعادة على جو الحفل .

تألقت الفكرة فجأة فى رأسى ، واختمرت بسرعة ، فى حين كان (تامر) يغمغم :

- كلاَّ .. شكراً .. إن ..

قاطعته وأنا أهتف فى لهفة :

- ستكون فرصة مناسبة لك أيضاً يا (تامر) .

ثم التفتُّ إلى الفتاة ، وقلتِ فى حماس :

- (تامر) عازف موهوب على (الأورج) .

هتفت الفتاة فى حرارة :

- حقًّا !!

احمرَّ وجه (تامر) خجلاً ، وغمغم فى ارتباك :

- إننى أهوى العزف فحسب .. إن (صفاء) تبالغ و ..

أسرعت أهتف فى حماس متزايد :

- بل هو عبقرىّ ، وستتأكدين من قولى هذا حينما تسمعين ألحانه .

نقلت الفتاة بصرها بيننا لحظة ، ثم انتزعت من دفترها تذكرتين ، ناولتنى إياهما ، وهى تقول فى مرح :

- حسناً .. سأدعوكما إلى الحفل ، ولو أعجبنى عزف (تامر) فستظل الدعوة سارية ، أما لو كنت مخطئة فستدفعان ثمن تذكرتيكما .

لم يكن هذا يكفى لنجاح خطتى ، فأسرعت أقول :

- سأحتاج إلى عشر تذاكر أخرى .

رفعت الفتاة حاجبيها فى دهشة ، وهتفت :

- عشر تذاكر ؟!

ابتسمت ، وأنا أقول :

- أسرتى كبيرة العدد .

هزّت كتفيها فى لامبالاة ، وناولتنى التذاكر العشر ، فنقدتها ثمنها ، وانصرفت هى إلى زبونين جديدين ، تحاول بيعهما تذاكر الحفل ، وسألنى (تامر) فى دهشة :

- ماذا ستفعلين بعشر تذاكر ؟

ابتسمت وأنا أغمغم :

- سأدعو بعض الأصدقاء لسماعك وأنت تعزف .

عقد حاجبيه ، وقال :

- لقد أحرجتنى يا (صفاء) .. إننى أكره العزف على الملأ .

قلت محاولة إقناعه :

- تخيَّل أنك وحدك ، واعزف ما يحلو لك .

قال فى حِدَّة :

– لن يمكننى تخيُّل ذلك ، وأنا أعلم أن الجميع يحدّقون فى وجهى .

هتفت فى حرارة :

– تظاهر بأنك لا تراهم .

لم أشعر بقسوة عبارتى وحماقتها ، إلا بعد أن غادرت شفتىَّ بالفعل ، فشحب وجهى ، واختلج قلبى فى ألم وندم ، وأنا أتطلع فى جزع إلى وجه (تامر) ، الذى امتقع فى شدة ، وهو يقول :

– لن يكون هناك داع للتظاهر .. إننى لن أراهم بالفعل .

أمسكت كفه فى حزن ، وغمغمت فى ألم :

– إننى لم أقصد ، تقبَّل أسفى .

قال فى هدوء :

– لا تعتذرى يا (صفاء) .. إننى أكره الاعتذار .

سالت من عينى قطرة دمع حزينة ، وأنا أغمغم :

– لقد أغضبتك .

ارتفع حاجباه فى حنان ، وأمسك كفى على نحو عاطفى أخاذ ، جعلنى أرتجف فى حب ، وأتطلع إليه فى هيام ، ولست أشكّ فى أن وجهى قد أصبح فى لون حبة الطماطم الطازجة ، حينما قال فى صوت متهدِّج حنون :

– كلاَّ يا (صفاء) .. إننى لا أغضب منك أبداً .

كانت اللحظة مناسبة تماماً ليعترف بحبه لى ..

كانت من أفضل اللحظات العاطفية ، التى ضمتنا معاً منذ عرفته ..

ولكنه هذه المرة أيضاً لم يفعل ..

ظل صامتاً ، يحتضن كفى بين راحتيه فى حنان ، ثم تركها بغتة ، واغتصب ابتسامة ، وهو يقول فى مرح مصطنع :

– ثم إن موعد الحفل سيوافق يوم الجمعة ، وأنا لا أحب العزف فى الإجازات ..

أمسكت كفه فى حنان ، وقلت :

– يجب أن تعزف يا (تامر) .

تجهَّم وجهه ، وقال فى ضيق :

- إننى أكره مواجهة الجماهير يا (صفاء) .

- هذا هو السبب الرئيسى لضرورة عزفك .

- سيسخرون من عجزى .

- بل سيهتفون لتفوّقك .

- سيكون هتافهم مشفقاً لا مشجّعاً .

- بل سيكون هتافهم اعترافاً ببراعتك وموهبتك.

- لن يمكننى يا (صفاء) .

- لا بدّ أن تحاول .

هزّ رأسه فى حيرة ، وكأنه يحاول اتخاذ قرار حاسم ، ثم غمغم فى حزن :

- لقد تجاوزت صعوبة العودة إلى الكلية ، ولن يمكننى مواجهة صدمة جديدة .

- إنها ليست صدمة يا (تامر) .. إنها فرصة .

- أية فرصة فى هذا ؟

- فرصة إبراز موهبتك ، وإثبات وجودك بين الجميع .

- ومن قال لك أن عزفى سيعجبهم ؟

- أنا واثقة من ذلك .

- قد يرون ما لا ترينه .

- حينما تبدأ العزف سيراك الجميع بعيونى أنا ..

- أنت مبالغة .

- بل واثقة .

ابتسم ابتسامة شاحبة عند هذه النقطة وغمغم فى توتر :

- ليت لى ثقتك .

قلت فى حرارة :

- ستكتسب هذه الثقة حينما تواجه الجماهير ، وتقنعهم بعزفك يا (تامر) .

شحب وجهه ، وكأن مجرد تصوّر ذلك يصيبه بالفزع ، وشعرت بكفه ترتجف تحت راحتى ، وهو يقول فى شحوب :

- سيكون ذلك عسيراً .

ربّتت على كفه فى حنان ، وأنا أقول :

- لقد اجتزت مواقف أشد صعوبة يا (تامر) ، ولن تتراجع أمام هذا .

أطرق برأسه لحظات ، ثم غمغم :

ـ سأحاول يا (صفاء) .. سأحاول .

وهكذا يا (فريدة) عدنا إلى المنزل ، وأنا أحمل وعداً منه بالمحاولة ، وأعلم أن ذلك لن يكون سهلاً بالنسبة له ..

وصدقيني .. إنه كذلك أيضاً بالنسبة لى ..

إننى أرتجف كلما حاولت تخيل نتائج هذه المحاولة ..

لو نجح (تامر) فى مواجهة الجماهير ، فستكون مشكلته الكبرى قد تلاشت ، وسيتحوَّل إلى شخص آخر ..

أما لو فشل ، فسينهار كل ما فعلته منذ البداية ..

صدقينى إننى أرتجف يا (فريدة) ..

أرتجف انتظاراً لنتيجة هذه المحاولة ..

محاولتى الأخيرة ..

الخائفة

(صفاء)

* * *

١٤ ـ المصارحة ..

الخميس : العشرون من مارس .

صديقتى العزيزة (فريدة) ..

أكتب إليك هذا الخطاب فى الصباح الباكر .. قبل أن أذهب إلى الكلية مع (تامر) ..

إننى أشعر بالقلق منذ البارحة يا (فريدة) ..

إن منزل (تامر) لم تنبعث منه أية ألحان منذ أمس ..

من الواضح أنه لم يتخذ قراره بعد ، ولم يتغلب على مخاوفه حتى الآن ..

لقد أزعجنى هذا كثيراً طيلة أمس يا (فريدة) ..

منذ عودتنا معاً من الكلية ، أخذت أعدّ خطتى فى اهتمام شديد ، ووضعت قائمة بالأشخاص العشرة ، الذين سأرسل لهم التذاكر العشر الإضافية التى ابتعتها أمس ..

تضمنت القائمة : والدى ، ووالدتى ، وشقيقى (وليد) ، وستة من كبار ملحنى ومنتجى الموسيقى فى مصر ، وشخصاً عاشراً ، أعتقد أنه أهم من فى القائمة ..

وذهبت بنفسى إلى الموسيقيين ، أمنحهم الدعوات ، وأتضرّع إليهم أن يحضروا الحفل ..

كان موقفاً جريئاً منى ، ولكننى لم أخجل ، ولم أتردّد ..

لقد عقدت آمالى كلها على هذا الحفل ..

ولكن (تامر) لم يعزف نغمة واحدة ..

أنا قلقة جدًّا يا (فريدة) ..

أعلم أننى ألعب بالنار ، ولكن هـذه هى الوسيلة الوحيدة ..

معذرة يا صديقتى العزيزة ، إننى عاجزة عن الاستمرار فى الكتابة ، وعن تركيز أفكارى ؛ لذا فسأكمل هذا الخطاب بعد عودتى من الكلية بإذن الله ..

(صفاء)

صديقتى الحبيبة (فريدة) ..

عجيبة هى دنيانا ..

غريبة هى مشاعرنا ..

ستقرئين يا صديقتى العزيزة هذا الخطاب دفعة

واحدة ، على الرغم من الفارق الزمنى الطويل بين توقيعى السابق ، وبدء هذه الفقرة منه ..

ما بين السطرين تبدلت أمور كثيرة ..

حينما وضعت ذلك التوقيع ، كنت أقرب إلى اليأس ، منى إلى الأمل ..

ولكننى الآن مفعمة بالأمل ..

لقد تركت الخطاب ، بعد أن ذيلت فقرته الأولى بتوقيعى ، وهبطت إلى أسفل البناية ، أنتظر نزول (تامر) كعادتنا ، وحينما جاء تصافحنا فى هدوء ، وسرنا متجاورين ، وأنا أتأبط ذراعه ، فى طريقنا إلى الكلية ..

وران علينا الصمت طويلا ..

أنا أنتظر أن يبدأ الحديث ، وهو صامت شارد ..

وأخيراً سألته فى قلق :

ـ هل وقع اختيارك على اللحن ، الذى ستقدمه فى حفل الربيع ؟

هزّ رأسه نفياً فى صمت ، فعدت أقول فى إلحاح :

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن يكون لحناً مرحاً .

عقد حاجبيه وهو يغمغم :

- إننى لن أعزف فى حفل الربيع يا (صفاء) .

كان هذا هو الجواب الذى أخشاه ..

كان هذا هو مصدر قلقى طيلة ليلة أمس ..

وهتفت فى استنكار :

- ولكنك وعدتنى .

ظهر الألم فى ملامحه ، وهو يقول :

- لن أنجح يا (صفاء) . لن يمكننى مواجهة الناس .

قلت فى لهجة أقرب إلى التوسُّل :

- ولكن لابد أن تحاول يا (تامر) .

صاح فى حنق :

- لست أرغب فى المحاولة .. لست أريد ذلك .

قلت فى ضراعة :

- ولكنه أمر بالغ الأهمية .

قال فى حِدَّة :

- إنه لا يهمنى على الإطلاق .

هتفت فى لهفة :

- ولكنه يهمنى أنا .

تصاعدت دماء الخجل إلى وجهى ، بعد أن نطقت هذه العبارة ، وغضضت من بصرى ، فى حين بهت هو لحظة ، ثم غمغم فى صوت مرتجف :

- ولماذا يهمك هذا الأمر يا (صفاء) ؟

ازداد تدفق دماء الخجل فى وجهى ، واختلج قلبى وأنا أبحث عن جواب مناسب ..

ثم اتخذت بغتة أخطر قرار فى علاقتى بـ (تامر) .. اتخذت هذا القرار بغتة ، حينما تصوَّرت أنه أفضل أسلوب لدفعه إلى التغلب على مخاوفه ..

لقد تذكرت فى هذه اللحظة كيف واجه (تامر) (فتحى) فى صرامة وشجاعة ..

تذكَّرت كيف تغلَّب على كراهيته للكلية ، وواجهها فى تحدٍّ وصلابة ..

تذكرت أنه فعل كل هذا من أجلى ..

ودفعنى هذا لاتخاذ القرار ..

قرَّرت أن أصارحه بحبى يا (فريدة) ..

صحيح أن المجتمع كله يستنكر أن تُقدِم الفتاة على ذلك ..

على أن تصارح حبيبها بحبها ..

إنهم يصرّون على أن تظل المرأة دوماً هى الطرف المتلقى ، وألا تحاول التصرف بإيجابية أبداً ..

ولكنهم ينسون أمراً هامًّا ..

ينسون أن المرأة كالرجل ، كائن بشرى ، يمتلك المشاعر والأحاسيس ..

ينسون أنها صاحبة حق فى التصريح بحقيقة عواطفها.

وقررت أن أتخذ جانب المبادرة يا (فريدة) ..

وعلى الرغم من قناعتى التامة بما أفعل ، إلا أننى لم أستطع منع دماء الخجل التى ملأت وجهى كله ، وأشعرتنى بحرارة شديدة ، وأنا أغمغم فى صوت شديد الخفوت :

– لأننى أحبك يا (تامر) .

شعرت بجسده يرتجف ، ورأيت وجهه يختلج ، وشفتيه تنفرجان فى بطء ..

وازداد خجلى ..

مرت لحظات من الصمت ، تمنيت خلالها أن يهمس فى أذنى بأعذب كلمات الحب ..

تمنيت لو أنه بادلنى صراحتى ، واعترف بحبه لى..

ولكنه أيضاً هذه المرة لم يفعل ..

ظل صامتاً ، شارداً بعض الوقت ، ثم ضغط كفى بأصابعه الدافئة فى رفق ، وغمغم :

– سأعزف فى الحفل يا (صفاء) .

رقص قلبى بين ضلوعى ، وانتابنى فرح شديد ، فهتفت فى سعادة :

– حقًّا !!

ابتسم فى حنان ، وقال :

– نعم يا (صفاء) .. وسأعزف لحناً لم أعزفه من قبل .

هتفت فى سعادة :

– أنا واثقة من أنه سيكون أروع ألحانك .

عاد يربِّت على كفى وهو يبتسم فى حنان ، ثم همس :

– (صفاء) ..

همست فى لهفة :

– نعم يا (تامر) ..

صمت لحظة ، ثم قال :

– أريد منك أن تعرف شيئاً واحداً .

سألته فى همس :

– ما هو ؟

أجابنى فى صوت متهدج :

– إننى أفعل ذلك من أجلك .. من أجلك أنت يا (صفاء) .

ولقد كانت عبارته هذه بمثابة اعتراف بحبه يا (فريدة) ..

أنا واثقة من ذلك ..

ولقد أصبحت واثقة من كل شىء يا صديقتى العزيزة ..

حتى الحب .. صديقتك المخلصة

(صفاء)

* * *

١٥ – انغام الحب ..

الجمعة : الحادى والعشرون من مارس .

صديقتى الحبيبة جداً (فريدة) ..

انتهى الحفل منذ لحظات يا صديقتى العزيزة ..

انتهى نهاية رائعة ، لم أتصوَّرها حتى فى أكثر أحلامى تفاؤلاً ..

لقد كنت شديدة التوتر قبل أن أذهب إلى الحفل..

إن (تامر) لم يعزف لحناً واحداً أمس أيضاً ، حتى تصورت أنه قد عدل عن وعده لى ، ولكن الأمل لم يلبث أن عاد يدق أبواب قلبى فى قوة ، حينما رأيت والدته تضع (الأورج) فى سيارتها الصغيرة ، وتعاون (تامر) على الركوب إلى جوارها ..

وازداد توترى وأنا أدعو الله أن ينجح (تامر) هذه الليلة ..

أن ينجح فى مواجهة آخر مخاوفه ..

أن ينجح فى كسب معركته مع نفسه ..

وذهبنا إلى الحفل ..

ذهبت أنا ، وأبى ، وأمى ، و (وليد) ..

وكان (وليد) أكثرنا سعادة ، حينما علم أن (تامر) سيعزف فى الحفل، وأصرَّ على اصطحاب جهاز التسجيل الصغير ، ليسجل اللحن الذى سيعزفه (تامر) ..

أما والدى فقد بدا هادئاً ، على الرغم من معرفته بأمر (تامر) ..

ولقد أدهشنى هدوء والدى هذا ..

حاولت طيلة الطريق أن أفهم مغزاه ، فعجزت ..

وزاد هذا من قلقى وتوتُّرى ..

ووصلنا إلى الكلية ، حيث يقام الحفل، وارتجفت وأنا أتأمل الأعداد الغفيرة ، التى سيواجهها (تامر) فى أثناء عزفه ..

وجه واحد بعث فى جسدى قشعريرة رهيبة ، وملأ نفسى بالخوف ..

وجه (فتحى) ..

كان يبدو شديد التأنق هذا المساء ، ولكن ابتسامته بدت لى شديدة المقت والشماتة ، حينما التقت عيوننا ..

ومن الغريب أنه أتى لمصافحة والدى ، متجاهلاً الإهانة التى وجهها إلىّ فى منزلى، ولكن والدى صافحه فى برود ، ورفض أن يمنحه حتى ابتسامة مجاملة ..

أما هو ، فقد قال فى صفاقة :

— يقولون إن جاركم الأعمى سيعزف لحناً هذا المساء ، فهل هذا صحيح ؟

أجابه والدى فى برود واقتضاب :

— نعم .. صحيح .

عاد يقول فى سماجة وسخرية :

— وهل يعرف العميان عزف الموسيقى ؟

حدَجَه والدى بنظرة باردة ، وقال فى هدوء :

— هل يروق لك دائماً أن تبدو جلفاً ؟

التفت إليه (فتحى) فى دهشة ، ثم احتقن وجهه غضباً ، وقال فى حِدَّة :

— هل تظن أننى سأبتلع إهانتك لمجرد أنك فى سن والدى ؟

بدا صوت أبى قاسياً صارماً ، وهو يقول :

ـ هل تحب أن تتلقى صفعة مع بداية الحفل ؟

شحب وجه (فتحى) ، وتراجع مؤكداً جبنه ، وقال فى عصبية :

ـ إن هذا الأعمى لن يعزف أبداً .

قال والدى فى برود :

ـ حسناً .. ابتعد عن طريقنا ، وافعل ما بدا لك .

اندفع (فتحى) مبتعداً فى غضب ، وهبط قلبى بين ضلوعى ، وأنا أتخيل ما يمكن أن يفعله شخص حقير مثله ، ليمنع (تامر) من نيل فرصته ..

ومن قاعة الحفل ، درت ببصرى فى المكان ، بحثاً عن الموسيقيين الستة ، الذين أعطيتهم دعوات الحفل ..

ولم يكن هناك سوى واحد منهم فقط ..

إنه منتج موسيقى معروف ، تحتل شركته مكان الصدارة ، وسط الشركات المنتجة لشرائط التسجيل الحديثة ..

وكان يكفينى أن يحضر هو ..

إننى لم أتوقع بالطبع أن يحضر الموسيقيون الستة ،

ولكننى كنت أدعو الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يحضر هذا الرجل بالذات ..

ولقد جاء ..

ولكن أكثر ما أشعرنى بالارتياح هو وجه المدعو العاشر ، الذى كان يفوق وجوده الجميع ، والذى حرصت على دعوته بالذات ..

وبدأ الحفل ..

بدأ بكلمة ألقاها عميد الكلية ، ثم أعقبتها بعض الفقرات الغنائية والتمثيلية الطريفة ، والتى يؤديها كلها طلبة الكلية ..

ولكننى لم أستمتع بكل هذا ..

كانت أفكارى كلها تتجه إلى (تامر) ..

كنت أحاول تخيّل مشاعره ، وهو ينتظر دوره للصعود إلى المسرح ، وعزف مقطوعته ، التى لم أستمع إليها من قبل ..

وتركز بصرى عليه ، وهو يجلس إلى جوار والدته فى الصفوف الأولى ..

كان يبدو مرتبكاً شاحباً، كمن ينتظر لحظة إعدامه ..

وتمنيت لحظتها لو ذهبت إليه ..

تمنيت لو شددت على يده مشجعة ..

كنت أعلم أن وجودى إلى جواره سيضع فارقاً كبيراً ..

وكدت أبكى عجزى ، ولكننى فوجئت بأمى تهمس فى أذنى بحنان :

— إذا كان (تامر) سيعزف هذا المساء ، أفلا يحتاج إلى تشجيعك ؟

ارتجف قلبى بين ضلوعى ، وأنا أهمس فى انفعال :

— ألن يغضب والدى ؟

ضغطت يدى فى حنان ، وقالت :

— إنه لا يبغى غير سعادتك يا بنيتى .. لقد تحدثنا فى الأمر ، وهو يوافق على ضرورة تشجيعك له هذه الليلة بالذات .

انحنيت أقبلها فى حرارة وسعادة ، وهتفت وأنا أنظر إلى أبى فى حب ورجاء :

— أبى !

خيِّل إلىَّ أننى ألمح دمعة تترقرق فى عينيه ، وهو يغمغم :

— اذهبى يا (صفاء) .

ملأتنى الفرحة حتى الأعماق ، وأسرعت إلى حيث يجلس (تامر) ، واتسعت ابتسامة أمه فى حنان وحب ولهفة ، وهى تهتف :

— (صفاء) ؟!.. كم تسعدنى رؤيتك يا بنيتى .

ورأيت اللهفة واضحة فى عينى (تامر)، ولم أخطئ نبرة الحب فى صوته ، وهو يقول :

— (صفاء) !!.. كم تمنيت حضورك ، قبل أن أبدأ العزف .

شددت على يده فى حنان وحب ، وأنا أهمس :

— أنا دائماً إلى جوارك يا (تامر) .

أمسك كفى فى لهفة ، وضغطه فى حنان ، وغمغم :

— لقد أطلقت على اللحن الذى سأعزفه الليلة اسمك يا (صفاء) .

ترقرقت الدموع فى عينى ، وأنا أغمغم :

ـ هذا يسعدنى يا (تامر) .

ثم أردفت فى دهشة :

ـ ولكن متى وضعته ؟.. إننى لم أسمعك تعزفه .

ابتسم فى حنان ، وقال :

ـ (الأورج) الذى أملكه من نوع حديث ، وهو يحوى مسماعاً خاصاً ، يجعلنى أسمع اللحن وحدى .

ثم أردف بصوت متهدج :

ـ لقد أردت أن أفاجئك به .

غمغمت فى حب :

ـ وأنا أتلهّف لسماعه يا (تامر) .

وفجأة أعلنت مقدمة الحفل ظهور (تامر) ، وشعرت بيده ترتجف ، وبصوته يختلج فى توتر ، وهو يقول :

ـ تذكرى يا (صفاء) .. إننى أعزف من أجلك .

ربَّتُّ على كفّه مشجّعة ، وقلت :

ـ سأستمع إلى اللحن بكل مشاعرى يا (تامر) .

رأيت بعض العاملين يصعدون بـ (الأورج) الخاص به إلى خشبة المسرح ، وشعرت بفخر شديد وأنا أعاونه على الصعود إليه ، وقد ساد القاعة صمت رهيب، حينما تنبه الجميع إلى أن العازف أعمى ..

وعدت أجلس إلى جوار والدة (تامر) ، وقد بلغ انفعالى مبلغه، وتعلقت عيناى به، وهو يتحسس أصابع (الأورج) ، ويحاول التغلب على توتره ، قبل أن يبدأ عزفه ..

وفجأة شق الصمت صوت بغيض ..

صوت (فتحى) الساخر الساخط ، وهو يقول فى خشونة :

ـ هل ستطلق على لحنك اسم (الظلام) ؟

كان يحاول السخرية من (تامر) ، ولكن عبارته قوبلت بسخط شديد ، وهمهمات غاضبة فى القاعة كلها ، ورأيت وجه (تامر) يمتقع ، وكرهت (فتحى) كرهاً لم أكرهه له من قبل ، ولكن (تامر) أجاب فى هدوء يخالف ملامحه :

- بل أطلقت عليه اسم (صفاء) .

عاد (فتحى) يقول فى خشونة وقسوة ، وكأنما أحنقه هدوء (تامر) :

- فلتسمه إذن (الحب الأعمى) .

ارتفعت صيحات الغضب بين الحاضرين ، ورأيت عميد الكلية يصعد إلى خشبة المسرح ، ويتناول (الميكروفون) من أمام (تامر) ، ويقول فى صرامة :

- هذا الطالب عليه مغادرة القاعة على الفور ، وليحضر إلى مكتبى صباح الغد .

أسرع رجال الأمن يدفعون (فتحى) إلى خارج قاعة الحفل ، وهو يهمهم بكلمات ساخطة متوعدة ، فى حين التفت العميد إلى (تامر) ، وربَّت على كتفه فى حنان ، وقال :

- ابدأ عزفك يا بنىّ .

احتبست أنفاسى وأنا أنتظر رد فعل (تامر) ، وخيم السكون على القاعة تماماً ، وهم يتوجهون بأنظارهم إليه ، وبدا هو جامداً بعض الوقت ، ثم اتجهت أصابعه إلى (الأورج) ، وبدأ عزفه ..

لا يمكننى أن أصف روعة اللحن ، الذى عزفه (تامر) الليلة يا (فريدة) ..

لقد كان مزيجاً من غناء الملائكة ، وشدو البلابل ، ونسائم الجنة ..

لقد فاق هذا اللحن كل ألحانه السابقة ..

كانت القاعة كلها تتمايل معه ..

والقلوب كلها تخفق من أجله ..

والنغم يتماوج فى القاعة حانياً ، رقيقاً ، يسلب العقول ، ويخلب الألباب ..

وبدا جميع من فى القاعة حالمين سابحين فى بحر النشوة ..

كانت أنغام الربيع ..

أنغام الزهور ..

أنغام الحياة ..

أنغام الحب ..

وأدرت بصرى إلى ذلك المنتج الموسيقى الكبير ، ورأيته مبهوراً مشدوهاً ، هائماً مع اللحن والأنغام ..

كان من الواضح أن (تامر) قد ربح معركته الأخيرة .

ربحها تماماً ..

لقد انتصر على نفسه ..

انتصر على عجزه وخوفه ..

وانتهت معزوفته ..

وران على القاعة صمت تام ..

وفجأة دوت الهتافات ، وارتجت القاعة كلها بالتصفيق الحار ، الذى استمر طويلا ، وقد نهض كل من فى القاعة ، إعجاباً وتقديراً ..

وتهللت أسارير (تامر) ..

تدفّقت دماء الحياة فى وجهه ، وامتلأت ملامحه بالبشر ..

وتصايح الحاضرون يطلبون معزوفة أخرى ..

وعزف (تامر) ..

عزف بمزيد من الثقة والحرارة ..

وتدفّق إحساسه الجديد مع أنغامه ، وأكفّ الحاضرين تلتهب بالتصفيق ، كلما انتهى من إحدى مقطوعاته ..

وفى ثقة وتواضع ، اعتذر أخيراً عن الاستمرار ، ليفسح فى المجال لباقى الزملاء ..

وشيّعه رواد الحفل بتصفيق حار ، لم يحظ به أحد من قبل ..

ورأيت المنتج الموسيقى يشق الصفوف إليه فى لهفة، ويصافحه فى حرارة ، وهو يقول فى انفعال :

— هذا أروع عزف سمعته فى حياتى ، إننى أعرض عليك عقداً بعشر سنوات ، وبمبلغ لم ينله أحد من قبل .

تهللت أسارير (تامر) فى سعادة ، وقال :

— ليس الآن يا سيدى .. ربما بعد انتهاء العام الدراسى .

عاد المنتج الموسيقى يهتف فى حرارة :

— ولكنك رائع .. موهوب .. ليس من السهل أن أتنازل عن فرصة عملك معى .

وهنا رأيت المدعو العاشر يتقدّم من (تامر) ..

ذلك المدعو الذى حرصت أشد الحرص على وجوده فى هذه الليلة ..

رأيته يضع كفه على كتف (تامر) فى حنان ، ويقول للمنتج الموسيقى :

– دع ولدى الآن يا سيدى ، وسنناقش هذه الأمور فى الصباح .

ارتجفت شفتا (تامر) ، واغرورقت عيناه بدموع الدهشة والفرح ، وهو يهتف :

– أبى !

أخفت والدة (تامر) وجهها بين كفيها ، وانهمرت الدموع من عينيها ، فى حين احتضن الأب ابنه فى حنان وحب ، وسمعت المنتج يهتف :

– أنت والده !! دعنى أشدّ على يدك يا سيدى .. لقد أنجبت عبقريًّا فى الموسيقى .

ترقرقت الدموع فى عينى والد (تامر) ، وقال فى صوت متهدّج :

– نعم يا سيدى ، وأنا أفخر بذلك .

ثم ضم (تامر) إلى صدره ، وقال فى حب خالص :

– إننى فخور بك يا بنى .. سامحنى .

احتضنه (تامر) فى قوة ، وهتف فى حرارة، وهو يتحسس وجهه بأنامله فى لهفة وشوق :

– أبى .. كم اشتقت لرؤياك .

لم أستطع كبح دموعى ، فتركت لها العنان ، ورأيت أبى يصافح والد (تامر) فى حرارة وهو يقول:

– تهنئتى يا سيّدى .. لقد أنجبت بطلا .

جفف والد (تامر) دموعه ، وقال فى فخر :

– هذا صحيح يا سيّدى .. لقد أنجبت أصح الأبناء فى هذا العالم .

أخذت أبكى فى حرارة ، إزاء هذا الكم من المواقف العاطفية الجميلة ، حتى شعرت فجأة بأنامل (تامر) تجفف دموعى ، وسمعت صوته يقول فى عاطفة :

– لا تبكى يا حبيبتى .

انتفض قلبى فى دهشة وفرح ، ورفعت عينىّ الدامعتين إلى وجهه الجميل ، وأنا أغمغم فى سعادة :

– ماذا تقول يا (تامر) ؟

ابتسم وهو يقول فى همس محب :

ـ إننى لم أجرؤ على قولها من قبل يا (صفاء) ، ولكننى أقولها الآن .. أقولها من أعماق قلبى ، ومن كل مشاعرى .. أنا أحبك يا (صفاء) .. أحبك حبًّا لم أحبه من قبل .. ستكونين الشمس التى تضىء حياتى المظلمة يا حبيبتى ..

وتهدّج صوته ، وخفت ، وهو يردد فى حنان :

ـ أحبك يا (صفاء) .

لقد قالها يا (فريدة) ..

أخيراً قال الكلمة التى أتمناها منذ البداية ..

وخطابى هذا لك بمثابة دعوة يا (فريدة) ..

دعوة لحضور حفل خطبتى لـ (تامر) الخميس القادم .

وسأنتظرك يا (فريدة) ..

سننتظرك معاً .. أنا و (تامر) ..

صديقتك إلى الأبد

(صفاء)

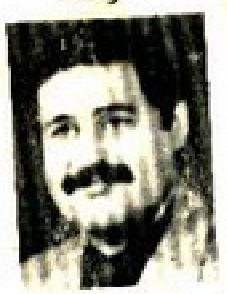
[تمت بحمد الله]

زهور

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

السلسلة الوحيدة التي لا يجد الأب أو الأم حرجًا من وجودها بالمنزل

المؤلف



د. نبيل فاروق



شمس الليل

انتقلت أسرة (صفاء) إلى مجتمعها الجديد في القاهرة.. إلى عالم جديد.. ومنزل جديد.. وهنا التقت (صفاء) بـ(تامر)، وتصاعدت أنغام حبهما في لحن ملائكي واحد.. ولكن (تامر) يحيا في ظلام ليل طويل.. يغلفه الخوف ليل لا تشرق فيه الشمس أبدًا..

فهل تنجح (صفاء) في إخراج (تامر) من هذا الليل؟..

هل تشرق شمس الحب؟

الثمن في مصر
ومايعادل دولارًا أمريكيًا في سائر الدول العربية والعالم